عربيد عشق آباد

دار شرقيات للنشر والتوزيع

عربيد عشق آباد
رواية
عمرو عافيه

الطبعة الأولى 2009

© حقوق النشر محفوظة لدار شرقيات 2009

دار شرقيات للنشر والتوزيع
5 ش محمد صدقي، هدى شعراوي.
الرقم البريدي 11111
باب اللوق، القاهرة
ت: 23902913، 23931548
sharq_ca yahoo.com

الغلاف: أحمد كامل

عافيه، عمرو
عربيد عشق آباد رواية / عمرو عافيه – ط 1. - القاهرة: دار شرقيات للنشر والتوزيع، 2009.
188 ص ؛ 20x14 سم.

رقم الإيداع21813 / 2008 تدمك:2-304 -283-977 ISBN
روايات – العنوان
ديوى 811

عمرو عافية

عربيد عشق آباد

رواية

دار شرقيات للنشر والتوزيع

في تلك الليلة البعيدة استيقظت من نومي في حالة متعَبة. انتابتني طوالها هواجس أقلقت نومي الخفيف بطبعه. تشبثت بي بقايا الحلم الذي لم يدعني حتى خلال إفاقتي بين الإغفاء واليقظة. لم أكن أتذكر أحداثا بعينها، بل فقط شعورا ملتبسا متبادل الإيقاع بين يأس ورجاء، وإحساسٍ بالبحث الدؤوب عن شيء مبهم، ثم متمة الشعور بالمحاولة للوصول إلى انعتاق تام. وثمة جملة تتردد خلاله بشكل لحوح خفي يزيد أحيانا من حدة اليأس وألمه أو يوسع من رحابة الرجاء. جملة كآية في كتاب مقدس (وعشق آباد* وما أدراك ما عشق آباد*).

عشق آباد... تذكرت أنني كنت أقرأ عن الدول التي انشقت عن الاتحاد السوفيتي السابق. وكانت تركمانستان آخر دولة قرأت عنها في الكتاب الذي كنت أدون منه بعض الملاحظات كي أستعين بها في محاضراتي مع الطلبة في الجامعة. الكتاب جاف وبلا تمييز. كتب بشكل آلي وبمصطلحات رقمية إحصائية. بلاد قصية مجهولة تريد أن تتواجد من جديد، بلاد محى تاريخها وها هي تحيا مرة أخرى. بلاد كالبشر تحيا كي تموت منتظرة بعث كبعث العنقاء.

مددت يدي وأضأت الأباجورة المجاورة للفراش، بحثت عن الكتاب، كان قد انزلق فاستقر على الأرض. أمسكت به بعينين كسّلهما الوسن

ففتحته حيث انتهيت قبل النوم. تركمانستان، العاصمة آشخباد... محورة من العربية والفارسية، عشق آباد، أي بلد العشق.... واسترجاعا للحلم تذكرت جملة (وعشق آباد * وما أدراك ما عشق آباد*)، والمشاعر المتضاربة بالحلم، فتستعاد ليدوم ترددها الداخلي ككرة تتخبط عشوائيا بين جوانحي حتى تهدأ وتنتظم حركتها ويصير لوقعها البندولي تأثير التنويم، فيغريني النعاس مرة أخرى وأنا مستسلم له تماما. أطفأت النور ونعمت ثانية بدفء الفراش ولينه، وسمعت صوت احتكاك الكتاب على اللحاف وهو ينزلق مرة أخرى ثم ارتطامه الخفيف بسمْك السجادة.

استيقظت صباحا وأنا لا أتذكر حلمي السابق ولا الحالة التي أسلمني إليها الليل البارح. ولكن بعد أن أخذت حمامي الصباحي وعملت "مج" قهوة تبشر رائحتها بانتعاش موقِظ ثم أخذته معي إلى غرفة المكتب كي أكمل ملاحظاتي. لم أجد الكتاب، رجعت إلى غرفة النوم ورفعته من الأرض ورجعت للمكتب لبدء إتمام العمل. أمسكت بالورقة الفاصلة للصفحات وفتحت الكتاب ووقعت عيني على كلمة عشق آباد فغمرتني للحظة رائحة غريبة علىّ زكية فواحة مستلذة كأنها من طيب الجنَان فأعادت إليّ على الفور أحاسيس الليلة الماضية.

انتهيت من كتابة الموضوع كله عصرا. محاضرتي في الغد الساعة الثامنة صباحا ثم سأذهب إلى عملي في مكتبة الإسكندرية كي أراجع المخطوطات الجديدة التي تم إهداؤها للمكتبة. إذاً لدي المساء كله كي أراجع المحاضرة مراجعة أخيرة. قررت أن أروح عن نفسي قليلا. كانت الشمس تكاد تغرب. استحسنت أن ألحق بها: فلأتمش على الكورنيش. استعدت قواي سريعا بالحركة بعد الجلوس الطويل أمام المكتب، وملأني المشهد الرائع لغروب الشمس على الميناء الشرقية حياة وخفة. تمشيت إلى وسط البلد، وفي شارع سعد زغلول دخلت مركز الكتاب علي أجد كتبا جديدة تستحق القراءة. عاينت الرفوف بكتبها المتربة. ابتعت رواية لعبة الكرات الزجاجية لهرمان هيسه وثلاثية الثورة لجميل عطية إبراهيم، ثم وجدت كتابا مصورا عما لا تراه العين المجردة، صور بالميكروسكوب

وأخرى بالتليسكوب. الميكرو والماكرو كوزموس. فكرت أن هذا الكتاب سيعجب زوجتي. اشتريت الكتب الثلاثة. أخرجت هاتفي المحمول واتصلت بها.

- غرام!
- حبيبي. توحشني دائما.
- كيف الحال في مدريد؟
- حارة.
- والبرادو؟
- رائع.
- والمؤتمر؟
- ممتع إلى أقصى درجة. صادف أمس مظاهرات تطالب بخروج القوات الإسبانية من العراق. تركت المؤتمر وتأبطت ذراع شريف ومشينا مع المظاهرة. شكل "أثنار" ونظرته الخائبة يثير الضحك وهو يصارع الوهم. أما "بلير" فهو المغفل فعلا.

صمتنا للحظة، ثم قالت:

- Te quiero

فضحكت قائلا:

- بمعنى؟
- يا أخي "أحبك".

فقلت كرد فعل تلقائي:

- وأنا أيضا.

كنت أنوي أن أخبرها عن الكتاب الذي اشتريته لها لكني تكاسلت.

- سأكلمك قريبا.
- سلام حبيبي.
- سلام.

أفكر في "غرام". لماذا لا تطلب الطلاق؟ أو لماذا لا أطلقها أنا؟ هل هذا التساؤل معقول بالفعل؟ نحن خير أصدقاء، بل نحن أقرب الأصدقاء. يضربون بنا المثل في التفاهم. الصداقة قبل الحب. كنا نظن أن الحب لا يسنده ولا يقويه أمام نوازل الزمن إلا تفاهم الأصدقاء. نعم نحن صديقان بكل معنى الكلمة. لكن ربما لكوننا أصدقاء لهذا الحد لا نهتم بالطلاق، وأن إمضاءين على ورقة أمام موثق عقود أو مأذون لن يغير من الأمر شيئا. أعرف مثلا أنها معجبة الآن بشريف جنة زميلها الجديد. كم تهكمنا على اسمه في بدء الأمر. أسميناه شريف جهنم، ومرة أخرى شريف جنة أو شريف الجن. اثنا عشر عاما من الزواج والصداقة. لا أطفال لدينا ولم نسع لهم ونسيناهم وكأنها رغبة كلينا. ندم خفيف لأني هاتفتها منذ لحظات. أشتاق إليها في غيابها دون شك. أكملت مسيري. واجهني إعلان دعائي كبير عن ماركة سيارات به وردة رائعة. وقفت لثانية أتأملها. حتتني حيوية الوردة على دخول محل لبيع الزهور. اشتريت وردة حمراء. ملمسها ناعم مفرح ووريقاتها ندية. أمعنت النظر في دوّامّية تشَكُلِها وأُخذتُ باحمرار دواخلها فغشتني رغبة للنوم مع امرأة. لم تكن رغبة ملحة، لكنها فاجأتني ثم راحت تتنامى ببطء. أكملت تسكعي المترقِب. وبالقرب من سينما رويال وجدت فتاة ترتشف عصيرا، وعيناها تبحثان. شكلها رخيص لكنها تتمتع بقدر متوسط من الجمال. خصلة ذهبية تنطلق من تحت حجابها، وجسد فوار تحت الملابس الضيقة. تخطيتها بعد أن تلاقت عيوننا. أكملت طريقي ثم وقفت أمام مدخل السينما غير بعيد عنها. تظاهرت بالفرجة على صور الأفلام المعروضة، كلها تقريبا أفلام مصرية خفيفة أو تافهة. لمحتها تقترب وتقف أمام شباك حجز التذاكر. دعوة صريحة منها ومتابعة جيدة لحركتي. هممت بالوقوف خلفها غير أن مجموعة من الشباب هجمت على الشباك فحالت بيني وبينها. حاولت أن أرى أين اختارت مكانها حتى استطيع أن

أجوارها لكني فشلت. ممكن أن أراها بالداخل. حجزت مقعدا مؤملا نفسي أن ألتقطها في الاستراحة، ثم نخرج سويا. كان العرض قد بدأ فحاولت أن أتابع الفيلم لكن تفاهته كانت أكبر من احتمالي. بدأت عيني تعتاد على عتمة الضوء الضئيل، فبدأت أتابع ظلال المشاهدين في الصالة علي أحدد مكان فتاتي المرتقبة، لكني فشلت أيضا في هذا فقررت أن انتظر لفاصل الاستراحة. لم يكن أحد بجواري فوضعت الكتب الثلاثة والوردة على المقعد الخالي...

فكرت في غرام. نحن متوافقان فعلا: نتفهم الجمل دون أن ننطق بها، عين التعليقات، نفس الضحكات، طريقة السخرية. وصال متفاهم ومستمر. لكن ألا يتشابه كل الأزواج بعد فترة من الزواج؟ معاشرة جنسية ممتعة من جهتها وحاليا أداء واجب من جهتي. هي تعرف أني زهدت فيها جسدا رغم حبي العميق لها، فيزيدها هذا غلمة. أو فلنقل أن تواجدها كجسد صار فوق احتمالي، حتى في الأوقات التي لا نمارس فيها الجنس. وبعقليتي التي تعشق الأساليب العلمية وتحليل الظواهر، اكتشفت أننا لا نتزاوج – ويا لها من كلمة حتى وإن ظهرت كمصطلح في مادة علم الأحياء – أو فلنقل (بكثير من البهجة) أننا لا نمارس الحب كثيرا. كانت ومازالت أكبر المتع معها بالنسبة لي، عندما نتلاصق ونحن ندقق النظر في صورة ما في كتاب، تجاورنا ونحن نشاهد لوحة أو تمثالا في متحف، عندما تتشابك أيدينا ونحن نستمع إلى قطعة موسيقية يحبها كلانا، شرودنا في مشهد عابر سريع كانطلاق طير مفاجئ. في لحظات المعاشرة أحار في تفسير مشاعري. تقول إني أعظم رجل جنسي في العالم، متغير الطبع والمزاج في الممارسة وكأنني "جورو" حقيقي. أضحك لهذا التشبيه. إلا أني أعرف أن كل شيء لا يبدأ إلا بمبادرتها هي. صرتُ أحتضنها وفي خيالي آلاف من صور مبهمة، صور مترعة باللذة، زاخمة بالمتع، فتتم بها الموقعة العشقية بكامل أناقتها وفورتها.

ولكنها غرام التي تدفن نفسها في صدري على الأريكة مثل كيتي القطة التي كنا نربيها متابعين فيلما تقول إني لا أبادرها أبدا بلمسة حب، أو

نظرة شهوة، وتضحك متغلبة على إحساسها بالألم وتقول أنه لولا مبادراتها هي لنسينا معني جسدينا ووجودهما. أتعلل بفكرة غامضة عليها وعلىّ بأني قد أصبحت زاهدا في الحياة ككل. غير أنها تعلم كما أني أعلم أن هذا القول ذئبي كاذب، فقد أكون زاهدا فعلا لكن بمفهومي الخاص. فتشاكسني قائلة إن زاهدا بهذه الآلة حرام عليه الزهد، فهذا إنكار لنعمة الخالق. ثم تنتفض ضاحكة راقصة وتقول لي: هيا يا راهب الإسكندرية إن "تاييس" تسعى إليك. ثم تقول بعد أن تنهك من القفز والتبختر حولي بلهجة كلها حزن وخوف حقيقي وكأن كل هذا قابل للتحقق: لكن إياك إياك أن تعظها وإلا تبادلنا المواقف.

أُضئ النور فجأة، فاصل الفيلم. وجدت الشقراء تتجه خارج الصالة، قررت أن أدخن سيجارة في الردهة، لكن الجالسة جواري بالصف بعد مقعدين قامت واستأذنت كي تخرج. مصرية داكنة السمار في خلطة محببة بين الهنود والخلايجة بشعر أسود منهدل على كتفيها. أفسحت لها ثم اتبعتها إلى لردهة. كانت الشقراء تدخن سيجارة وتتحدث مع واحد من مجموعة الشباب الذين سبقوني إليها.

تحركت السمراء لتشتري فشارا. أنا لا أميل للداكنات أبدا. لكن صراحة كان لجسدها وإيماءاته وجود يؤكد نفسه. لا سرعة على الإطلاق، بل تمهل مؤثر خلاب. لا تصل أبدا للبطء الممل الممجوج. إن التناغم والليونة يتحكمان في خطواتها، فهي تمشي على الأرض هونا ورقة. ترى التكامل التام لكل ردف وتكور انحنائه وحركتهما المتخاذلة وهما يتبادلان التهاوي البطيء حتى لكأنها لن تكمل خطوتها إن لم تلحقها حركة الساق الأخرى المشدودة إلى التكور المرن للردف الآخر. قوام مثير بالفعل. كيان يحوي قوة انسياب الزنوج ورهافة وتعالي نساء العرب. جسد متناسق يناسب خالق عظيم مبدع لكل ما هو جميل، جسد يمحو أطنان من قباحات أخرى.

تساءلت هل غرام تتمتع بجسد جميل؟ نعم بالطبع. تحافظ عليه بكل ما تستطيع من حنكة وبكل مهارة. لكن هذه السمراء تتمتع بسحر التحرك... الحركة التي تخلق الحياة، الحركة التي تلغي الجمود والموت ببساطتها. كانت

تطأ الأرض متهادية برقة كأنها تمشي على حقل من أوراق ورود. تتغانج غرام كذلك، لكن غنجها يصلني بشعور سلبي رغم يقيني أنها مدللة بطبعها لكنه لا يناسبها لسبب أجهله. أحيانا أشعر أن لغرام طابعا رجوليا، ربما لامتلاكها الحصيف لمقدراتها، ربما لانغماسها في شؤون السياسية والبيئة، وأحيانا أبرر هذا للعرق الأجنبي فيها. رغم أنها ملفتة جدا للنظر وشهية حتى أن ابن خالتي الذي نشأتُ معه عمري كله مال عليّ يوما بعد أن اعتراه التغيير الكبير الذي حدث للبلد كلها فأطلق لحية وحجّب امرأته ثم نقبها، مال علي وقال: أنت أخ عزيز عليّ، فانصح زوجتك أن تراعي ملابسها قليلا. نظرت إلى غرام يومها كانت جميلة ومتحررة بطريقتها المعتادة. ابتسمت وقلت له: الجسد من عجائب الدنيا، فرغم أهميته إلا أنه مجرد شكل، أسطح وخطوط. ترى بشرتها وترى انعراجات جسدها فتشتهيه؟ حاول أن يقاطعني. فأكملت: انتظر ألا تظن أن واحدا من أصدقائك قد يشتهي امرأتك ولو مرة في حلم ما، دعك ممن رآها من قبل أن تتحجب وتتنقب، ألا تظن أن أحداً من زملائك يتخيل أنه يعاشر زوجتك. زوجة فلان الفلاني، فقط لأنك قلت مرة أمامه أن طعامها شهي، أو ملابسها نظيفة أو أي شيء من هذا القبيل فيتخيل امرأة ما لكنها في مخيلته امرأتك أنت، إذن لماذا إعطاء كل هذا الاهتمام بالجسد. غضب مني يومئذ ولم يكلمني بعدها. أنا مازلت عند رأيي. ها أنا الآن أحدق في الشكل الذي يمثل جسد هذه الفتاة. لكن .... حركة هذه السمراء ذاتية بشكل عجيب رغم الخيوط اللامرئية التي يهيأ لي أنها تحركها. راقبتها بتدقيق ومتعة. تذكرني بصديقة قديمة من أيام الجامعة، كانت أصغر مني بعامين، ومشروع علاقة فشل فشلا سريعا وحمدت الله على سرعة فشله ففي أسابيع قليلة اكتشفنا اختلافاتنا اللانهائية. حتى في أبسط الأشياء، فإن أعجبها فيلما كرهته أنا، إن أعجبني كتابا استسخفته هي. لم نتفق على أغنية واحدة. تنافر تام بل إحباط دائم في كل مرة... ثم ظهرت غرام. سمعت عن الأستاذ المشوش بكلية الآداب من صديقتها، حضورها محاضرة لي وسط الطلبة واقتحامها عالمي بجرأة. اتفاق تام تقريبا ثم عشق متبادل جامح لأيام قليلة، فخطوبة سريعة وزواج قبل بدء المرحلة النهائية بكلية الطب.. ثم، بعد العام الثالث.. الرابع.. السابع أو حتى ربما من أول يوم لم أعد أتذكر، بت أرتاح للمهام التي تتطلب

غيابا عن البيت. صديقان رائعان وجسدان يلتقيان ممتع لها سخيف له. مرحى مرحى أيها الملل.

انتبهت أن الجميع قد رجع للصالة لإكمال الفيلم. لم أدخل وبقيت أدخن بإهمال سجائري الممتعة واحدة تلو الأخرى وأفكر بتعال كيف أنني أفوت فرصة الرجوع والجلوس بجوار تلك السمراء الساحرة. انتهى الفيلم وخرج الجميع. لمحتها بين الخارجين مع مجموعة الشباب يتضاحكون ويستعيدون مشاهد من الفيلم. ها قد اختارت الشقراء خاطفيها. أما سمرائي فقد خرجت بحركتها المتموجة. قررت سريعا أن أجرب حظي معها. هببت واقفا فكدت أن أسد طريقها. رنت إليّ ثم أكملت طريقها. جاورتها قبل أن تخرج من مدخل السينما وقلت وكأني أعرفها منذ زمن:

- بدأ الرذاذ.

ثم أكملت موجها كلامي إليها:

- هل تناولت عشاءك؟

فقالت مندهشة:

- لا.

- جائعة؟

تمهلت قليلا ثم قالت:

- نعم.

- فلنجلس في"إيليت". إنه الأقرب.

- موافقة. لكن كل يدفع حسابه. أنا لا أريدك أن تدعوني.

- لماذا؟

- هكذا. موافق؟

- موافق.

ترددت فكرة في تلافيف دماغي: أأخون غرام؟ ثم انعكس السؤال: أتخونني غرام؟ ناقشت نفسي: لا ليس رد فعل. لا أؤمن بالغيرة. هي حرة. وأنا حر. ثم نحن أول الأمر وآخره صديقان.

جلسنا متقابلين في إيليت على منضدة في الركن الزجاجي.

- يقدمون "النجرسكو" ممتازا، لكن للأسف لم تعد الخدمة مثل زمان. كنت أحبه كثيرا.

- أول مرة أجلس فيها هنا.

- أترين هذه الصورة المعلقة هناك؟

- نعم. مَن ذلك العجوز. صاحب المحل؟

- لا. إنه شاعر سكندري مشهور اسمه كفافيس.

- اسمه غريب. أهو مازال حيا؟

- لا. قد مات منذ زمن.

- أنا أحب الشعر.

فكرت أن كل بنت أتكلم معها في الكلية، منذ أن كنت طالبا إلى أن أصبحت أستاذا بها، تقول إنها تحب الشعر ثم يكون الوحيد الذي تعرفه هو نزار قباني ثم ترص عدة أبيات مكسورة عن الحب، تقولها بأخطاء نحوية وصرفية بشعة. وإن زادتني قالت أحب أحمد شوقي ولا تتذكر له أي شيء. إذن فلنكمل الحوار المعتاد. مراهنا نفسي على نزار وعلى الأكثر جويدة.

- مثل من؟

- أنا لا أعرف أحدا بذاته.

يا الله، إنها لا تعرف حتى نزار قباني. لكنها على الأقل ليست مدعية.

أكملت حديثها: أنا لا أحفظ أسماء. لكني أحب سماع الشعر وأحب الموسيقى التي تتخلله.

- تقصدين موسيقاه الداخلية.

صمتت ثم قالت بعد برهة:

- أعتقد هذا.

نظرت مرة أخرى للصورة:

- قلت لي ما اسمه؟
- كفافيس.
- أتعرف شيئا من شعره؟
- كاثِي برُسباثيامو ميا كتاذيكِه إينِه غرافتي.

ابتسمت وبانت أسنان صغيرة متسقة توحي بالحنان بشكل لا مفسر وقالت:

- هذا ليس بعربي؟
- لا هذا يوناني.
- ما معناه.
- في كل محاولة لي تحل كارثة.
- يا ساتر يا رب! لم كل هذا؟
- كم عمرك؟
- 22 سنة.

تحدثنا قليلا أثناء الطعام. هي بوجه عام تميل إلى الصمت. تتكلم في أشياء عامة. ساذجة بمقدار لا بأس به أو هكذا تصورت. لا تعرف شيئا عن الحياة تقريبا.

انتهى العشاء. صممتُ على الدفع لكنها رفضت بشدة.

- قد توقف المطر.

- إذن هيا بنا.

اكتشفت أني بلا سيارة. قلت لها:

- أسكن في الأزا ريطة. هل نتمشى سويا أو نركب تاكسي؟
- لقد تأخرت. لكن الجو رائع. لا مانع عندي للتمشية.
- سأوصلك.

كان الجو منعشا للغاية. وصلنا بعد ثلث ساعة تحت البيت. نظرت إليها وقبل أن أتكلم قالت:

- لقد تأخرت بالفعل، صحيح أنا أسكن مع أمي فقط لكني تأخرت.

تغير حالها في السيارة، بدأت في التكلم عن علاقتها بوالدتها وبوالدها الذي يعمل باليمن، وعن المدارس التي تعلمت بها في السعودية ثم اليمن. الحياة المنغلقة تماما التي عاشتها هناك وهنا، ونزوعها للوحدة وخوفها بوجه عام من الناس (تساءلت هل حقا ما تقول؟) ثم رجوعها منذ ثلاثة أعوام هي ووالدتها إلي مصر للدراسة في المعهد العالي للخدمة الاجتماعية.

ثم سألتني:

- ماذا تعمل؟
- أستاذ جامعي.
- أمي أيضا مدرسة. مدرسة ابتدائي.

أوصلتها إلى نهاية شارع مصطفى كامل.

قالت: هنا يكفي. سأكمل أنا. شكرا لك. وشكرا للعشاء والكلام.

قلت لها: إني حتى ما دعوتها.

فقالت بجدية: قد اتفقنا من قبل.

فتحت باب السيارة وقالت: سلام، تصبح على خير.

هل ستقول أراك مرة أخرى؟ إن لم تقل سأقولها أنا. لم يخب ظني. أكملت نزولها ثم قالت:

- هل سأراك مجددا؟

ضحكتُ وقلت لها اسمي الذي لم تسألني عنه فردت قائلة بجدية وبما يشبه التعب:

– أنا اسمي مريم.

رددت مندهشا:

- مريم؟

- نعم. هذا هو اسمي.

تبادلنا أرقام المحمول. ثم ألقت السلام مرة أخرى ورحلت.

رجعت البيت منهكا بلا سبب. جلست في مقعدي المفضل. اتصلت مرة أخرى بغرام لكنها لم ترد. الوقت ليس متأخرا عندها لفرق التوقيت. ربما نامت. وقفت تحت المياه الدافئة المندفعة أفكر في هذه السمراء. دلفت إلى فراشي. أتساءل هل غرام كتومة مثلي؟ هل ستعرف أي شيء عن هذه السمراء. لا. تحب غرام الكلام معي عن كل شيء. عن أحلامها وأفكارها وتطلعاتها، حتى عندما ظهر شريف في محيطها أسرعت وحكت لي عنه وعن مشاعرها تجاهه، لم تخف أي شي عني. هل أنا دَيُّوث؟ أهو سؤال يقع تحت المظلة الاجتماعية أم الدينية؟ لنبحث أولا عن الإجابة. هل هي نعم أم لا. فقه أم علم نفس؟

تذكرت حديثا في سنن أبي داود، بحثت عنه حتى وجدته. قال أبو داوود عن ابن عباس قال: ثم جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن امرأتي لا تمنع يد لامس. قال: غرِّبها. قال: أخاف أن تتبعها نفسي. قال: فاستمتع بها.

لا ليست غرام من اللواتي لا يمنعن يد لامس، على الإطلاق. أفكر هل الخيانة موجودة فعلا أم هي فقط فعل درامي مساعد للكتّاب. من أعرفه من المتزوجين خائنين؟ ويل!! لم أسألها عن اسمها. أم سألتها؟ لا، إنها ذكرت لي اسما لكني نسيته!

زارني الحلم؛ حلم عشق آباد مرة أخرى ليلا لكن بتنويعات أخف وأكثر إبهاما. ذهبت إلي محاضرتي منتعشا بعد حمام الصباح. تناقش معي طالبان بعدها عن مصير الجمهوريات المنفصلة عن الاتحاد السوفيتي ومناهجها المتباينة في الإصلاح. طلبت منهما عمل بحث تطوعي عن الفرق بين ما انتهجته هذه الدول وما وصلت إليه. طرأت لي فكرة أن أحكي لهما عن حلم الأمس لكني تراجعت. ذهبت بعدها إلى مكتبي في مكتبة الإسكندرية. عدة مخطوطات جديدة مهداة من دول شتى. ولدهشتي وجدت مخطوطا غير مكتمل من تركمانستان. تصفحته سريعا كان اسمه: "ما يعتبره العباد فيما جرى لعربيد عشق آباد". عجبت من هذه المصادفة لكن حتى في حياتي العلمية أوقن أن للصدفة قانونا خاصا يعمل لصالحها في كل الأوقات ولصالحنا في بعضها فقط. تأملت المخطوط، عربي اللغة، به رسومات فارسية جميلة، حالته جيدة إلى حد ما، تصفحته سريعا وبحرص. لا تاريخ مدون عليه، قرأت مقدمته بصعوبة إلى حد ما.

❖

مخطوطة

"ما يعتبره العباد فيما جرى لعربيد عشق آباد"

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم، اللهم! ها قد جئنا بأنفسنا إلى نفسِنا. قد تاهت منا الأفئدة، لا مغيث لنا إلاك، يا ولي الخفايا، قد غارت بنا أبداننا فأعوزتنا وما لنا سواك فأغثنا يا الله. تقلبت القلوب وما لها من مثبت غيرك يا علىّ، فأصلحها لنا بالألفة.

عُرف عني في زمن فائت بفيحاء الشام ومدينة النور أني قد رويت للقاضي العزيز جمال الدين بن حسني الحجّاري قصةَ العربيد كما خَبرتُها وأرتنيها هذه الحياة الدنيا وما فيها من عبر يعتبر بها القاصي قبل الداني، من كان له جنان، وله من الأفئدة فؤاد طُوّع على الذِّكر والتذكر، كما أمر المولى عز وجل.

وقد سُئلتُ كتابتها مراتِ عدة، كما تسألني أنت الآن أصلحَ اللّهُ لك الأمرَ

وأدام عليك الفطنةَ وطلب مني إثباتها حتى لا تمحى من ذاكرة بني آدم وسبحان من له الدوام الحي القيوم. ووالله أنا لفاعل، وهذا بفضل اصطبارِكَ عليّ وتعضيدِكَ لي في سؤالِك عن ما خَفِي من أخبارِ العربيد. فها أنا ذا أرسلها إليك شرح اللّهُ صدرَكَ فأنتَ أهلٌ الجودِ والفضلِ علينا. فإن أردتَ أن ينسخَها ناسخك فلا عدمتك أبدا أصلاً للمروءة والحكمة التي أفاء الكريمُ عليك منها وزاد حتى غمرتنا بجميلِ معروفك. ولتكن رسالة عسى أن يستفاد منها وتوصل ما قد انقطع بتلك الويلات التي يبتلينا بها القدير الحكيم.

سأقصها عليكم كما عرفتها من نبعها الصافي العجيب وسمعتها منه وكنتُ حينئذ قد راهقتُ بالكاد. لعل الكثير منكم قد سمع أشتاتا من قصة العربيد، فلربما تناثرت أقاويل من أهليكم أو ردد أمامكم بعضا من الأشعار التي تغنت بها الناس عنه في الأسواق والقيان في مجالس الشرفاء، قبل أن تحَرّم من قبل أهل المنابر مسخرة الولاة وتمنع ويحل دم منشديها

حتـى كـاد النـاس ينسـونها وضـاع أصـل الحكاية، فلا يعرف الآن أولها ولا خاتمتها. ولـذا سـأبوح بمـا ظهـر منهـا ومـا بطـن. تسـألون لـمَ طـالَ صـمتي؟ ولـمَ بحـتُ وقصصـتُ رغـم فرمانـات التحـريم حتـى كـادت أن تخفـى فـي غياهـب النسـيان، وبعـد أن توّهَـت وانسـربت فـي مكـرور الأيام؟ صـمتُ وبُحـتُ لأني أُمرتُ. أُمرتُ. والأمرُ نافذٌ لحكمةٍ قد تخْفى عنكم وعني.

ما أَنا واهِنٌ وَلا مُستَكينٌ لِسِوى أَمرِ سَيِّدي ذي السَماحِ

قررت إرجاء البت فيه ومتابعة قراءته في وقت أكون بمزاج رائق. وضعت المخطوط بعناية في ملف خاص به.

❖

يومان ثم يوم ثالث، ثم قررت الاتصال بها. لم يعد للأمر نفس الأهمية وتبدل شعوري إلى حد ما تجاه ما أسميته ساخرا (فتاة في فراشي) كعنوان لفيلم ستيني خفيف. ولكن هذا التغير لم يثنني أن أكمل شيئا بدأته. "الرجاء إعادة المحاولة حيث الرقم المطلوب غير موجود بالخدمة"، خدعة. وهل كنت تتوقع حدثا آخر؟ لكن بعد يومين رن هاتفي وكان نفس الرقم. قالت لم يكن معي رصيد للكارت، استعدت الخط.

- متى سنتقابل؟

- ما رأيكَ في صباح الجمعة؟

إنه اليوم الوحيد الذي أحب الاستيقاظ فيه متأخرا، لكن قلت:

- لا مانع عندي. الساعة؟
- التاسعة.

ما أقساها!

- لم باكرا هكذا؟
- دعنا نبدأ اليوم من الأول.

لن أدعها تفلت بسبب كسلي. أكملت كلامها:

- اتفقنا؟
- اتفقنا.
- أين؟
- سأنتظركِ في "كوستا" في ستانلي.

في صباح يوم الجمعة، رأيتها خلف الزجاج بتحركها الساحر تقترب من المحل، ثم دخلت متشحة بملابسها الشتوية وكوفيه متعددة الألوان، مبهجة عكس الغيوم التي تسيطر على السماء والمدينة. احتسينا القهوة بتلذذ ونحن نراقب العواصف التي بدأت تهل في السماء، والبحر البادئ بالانفلات والهياج أسفل كوبري ستانلي، والمارة المسرعين. تكلمنا قليلا وكأننا نعرف بعضنا منذ زمن طويل. تعليقات متفرقة عن الجو والناس. ذكرتني كوفيتها متعددة الألوان بلوحات آل وانلي. عصفت السماء فجأة ورعدت فاشتقت لدفء قريب. رجع لي إحساسي باشتهائها وبأني مؤكد سآخذها معي هذه المرة. هذا التأنق يدل على شيء مضمر، أليس كذلك يا رجل؟ لكننا مازلنا في بداية اليوم وأنا في غنى عن اللهوجة.

- ما رأيكِ أن نزور أحد المتاحف؟

- لم أدخل متحفا من قبل.

- حسنا، ماذا تفضلين متحف آثار أم لوحات؟

- آثار يعني تاريخ؟ أفضل الآثار.... لا، غيرت رأيي... لوحات ورسم أفضل، لنبقِ التاريخ إلى مرة ثانية. صح؟!

خرجنا مسرعين تحت المطر المنهمر إلى السيارة. انتابتني ضحكة وخفة لذيذة وأنا أقود السيارة في هذا الجو الشتوي الرائع. وذهبنا إلى متحف محمود سعيد في سان ستيفانو. أعجبها معمار الفيلا الخارجي والداخلي. شاهدنا الدور العلوي أولا حيث أعمال سيف وأدهم وانلي. تركتها تشاهد اللوحات ببطء يناسبها، وجعلت أراقبها علّي أستشف من انفعالاتها أشياءً تساعدني على فهمها أكثر. لم تكن تعلق على اللوحات إلا نادرا. انتهت من آل وانلي فنزلنا للدور الأرضي حيث أعمال صاحب القصر محمود سعيد. تأملت لفترة طويلة جدا أدواته فتحيرت لهذا لكني لم استعجلها. دخلنا معا من غرفة إلى أخرى حتى وصلنا لعارياته شبه الزنجيات بأجسامهن قهوية اللون وفورانهن المستتر تحت استرخاءاتهن المغوية الجميلة. تأملنا اللوحات معا صامتين لبرهة ثم التفتت إلي وقالت:

- جميلات جدا.

- النساء أم اللوحات؟

ابتسمت وقالت: الاثنان. ثم استدارت وسألتني هل بقي شيء لم نشاهده، قلت لها يوجد دور سفلي تحت الأرض به مجموعة كبيرة من الأعمال الفنية المصرية الحديثة. فقالت إنها قد اكتفت بهذا القدر وتريد أن تبقى لوحات محمود سعيد في مخيلتها أكبر فترة ممكنة.

هل نذهب إلى بيتي؟

قالت بهدوئها الذي بدأت أعتاد عليه:

- هيا بنا. ألديك طعام في المنزل؟

- أظن هذا. هل تحبين أن نتناول غذاءنا أولا في أي مكان.

- لا. أريد أن أطبخ شيئا بسيطا جدا. ربما أعجبك.

في السيارة، مددت يدي إلى ساقها بجواري، سكنت ولم تمانع. لكن يراودني إحساس غير مريح شاذ في انعكاسه عليّ، كأنها تقنع نفسها بأن ما يحدث هو الخطوات المعتادة للعبة، مثلما تسحب كارتا ممن يليك في لعبة الشائب. كأنها شاهدت هذه اللعبة عدة مرات من قبل ولكنها لم تلعبها، وأنها الآن ناسية هل الواجب أن تسحب هذا الكارت ممن يليها أو ممن يسبقها. نحيت هذا الشعور جانبا، متحاشيا أن يفسد على ما كنت خططته.

وصلنا إلى البيت. سبقتها إليه. تساءلت ترى هل سيعجبها ذوق غرام الذي هو ذوقي أيضا. دخلت بخطوات وجلة إلى حد ما. جلنا معا في الشقة أريها إياها وعندما انتهينا للمطبخ، قالت لي:

- أنا أريد المطبخ. ألم أقل لك إني أدعوك لوجبة أتمنى أن تكون شهية.

- ها هو المطبخ يا سيدتي.

- هل لك أن تستريح قليلا حتى أناديك.

- أمرك.

تركتها تبحث في المطبخ وتكتشف نوعية الأكل المتاح. واتجهت إلى الحمام كي آخذ دشا سريعا. وما أن انتهيت من حمامي وارتديت ملابسي حتى سمعتها تنادي عليّ. كانت قد حضرت عجة باللحم المفروم. قالت وهي تضحك:

- هذا كل ما أستطيع أن أدعوك إليه من عندك.

ابتسمت وجلسنا نأكل. وما أن انتهينا حتى جلسنا على الكنبة أمام البلكونة المفتوحة. كانت السماء قد انزاحت كآبتها والشمس عصرا تمنح دفئا مفتقدا. قامت تشاهد الشمس وتستمع بدفئها. أخرجتْ سيجارة من علبتي وأشعلتها.

- عندك موسيقى نسمعها؟

قمت ووضعت أسطوانة تركي حديثة أعرف تأثيرها جيدا على من يعشق الموسيقى، بجمال شرقي أخاذ وتوزيع غربي متقن. بدأت في التمايل البسيط مع الموسيقى. كانت قد خلعت الكوفية والجاكيت. وظلت بالبلوزة البيضاء القطنية الرقيقة، الچيب الساقطة المحبوكة على ردفيها الجميلين. خطر في بالي محمود سعيد مرة أخرى، ترى لو رأى هذا الجسد البديع كيف كان سيصوره. تراءت لي بدينات رينوار ذوات الثنيات الضخمة وبشرتهن ذات اللون الوردي الخنزيري، فضحكت عاليا، التفتت إليّ منزعجة من الضحكة وقالت:

- هل رقصي مضحك إلى هذا الحد؟

فقلت بلهفة:

- لا طبعا. على العكس، كل ما في الأمر أني تذكرت (ثم موقنا أنها مؤكد لن تعرف رينوار فغيرت الكلام) بعض الصديقات العزيزات البدينات ذوات الشعور الذهبية. ما أجملك.

أكملت رقصها الهادئ باطمئنان خالي البال. كانت بلوزتها القصيرة قد خرجت متحررة من چيبتها الساقطة فبدا حز صغير من بطنها. أطفأت سيجارتها وهي تكمل رقصها الذي صار كحال منفصلة. قمت إليها وفككت الزرين الباقيين في البلوزة، وخلعتها عنها بسهولة. أكملت رقصها. تراجعت للوراء كي أنظر إليها. كان مشد الصدر يحضن ثدييها برقة ضاغطة. وجسدها الأسمر يكتسب ذهبا من الشمس المانحة من بعيد. يا الله ما أبدع أن يحتويني مشهد كهذا! يا لها من متعة! أتعجب، أنا لا أميل إلى السمراوات. لكن هذا سحر جلي. سحر أكيد. هذه الشمس التي أصبحت تنعكس من جسدها عليّ. هذا الدفء الذي يمنحه بطء حركتها وتمهلها. قمت وكلي رغبة في أن أحتضنها حتى أدور معها في مداراتها المهَوِّسة. اقتربت منها، بدت نشوانه، سكرانة. أمسكتها برفق واحتويتها بين ذراعي وتركت لها مع ذلك فسحة تتحرك فيها بين ساعديّ. بدأ تحركها يهدأ قليلا قليلا حتى استكانت

تماما. أحكمت مسكتي لها رغما عني. أصبحنا متلاحمين. كانت لها رائحة لبن الأطفال. أفاقتني تلك الرائحة المتخللة. أنا أكره هذه الرائحة جدا، قدر كرهي للأطفال الرضع. تصيبني هذه الرائحة بالغثيان. كان عقلي (أم ترى جسدي) يرفض أن يدعها. إنها أشهى من أن أتركها تفلت من يدي الآن، وأكثر لذة وأقوى تأثيرا على كل الحواس الأخرى بما فيها حاسة الشم. ركعنا على الوسائد الأرضية التي تحتل الغرفة. ثم خلعت عنها صدارها، ثم الچيب وأخيرا لباسها التحتاني الرقيق الذي لم أكن أتوقع جماله وأناقته هذه. أصبحت عارية تماما وممكنة وقريبة. تأملت هذا الجسد الفتى الساكن بجواري الآن. عادة محببة بالنسبة لي. تأمل الأجساد العارية الجميلة. حلم الجنة البريء. عيناها مغلقتان وشفتاها متباعدتان قليلا بثغر نصف مفتوح. لكن هذا الجسد ليس متهيجا. جسد ممنوح بلا شهوة. جسد لا يعترف بهذه اللحظة الحميمية. جسد لا يتفتح خارج عالمه الخاص. وردة تغلق أكمامها. مررت بإصبعي على صدرها. النهدان صلبان بطبيعتهما الشابة لكن الحلمتين نائمتان. جسد بلا توتر، خامل. يَرد على خاطري جسد غرام الفائر الداعي، الداعر في رغبته. قد يكون لاسمها سبب في هذا؟ هه. وهذه المريم. ما بها. انفثأت الرغبة داخلي. لكني بقيت أمسدها وألاطف جسدها بمتعة مختلفة، لكن بتزايد الألم لإحساسي بعدم تجاوبها وذكرني بنفسي في علاقتي بغرام في كثير من الأحيان. فالملل بجلاله يحتويني معها، والتباعد الجسدي غير المفهوم يؤكد خمولي، فأصبح كهذه المستلقية جواري، رخو كأجساد الأجانب على الشواطئ الحارة. لكن غرام المتأكدة مني ومن نفسها، من غنجها، ومن كبريائها أيضا لا تدعني إلا بعد أن تبث فيّ رغبة تخرجها من مكامن مجهولة في روحي وتعبث بجسدي حتى تفجره براكين حِمَمية. أتأمل الفتنة النائمة جواري وأتساءل هل سأتصرف معها تصرف غرام معي؟ لكن رغم الألم الذي صار يتضخم بجسدي ويُنتئ إبره الشاكة بلا رادع أو رحمة ظللت ألاطف جسدها بهدوء. تغشاني مرة أخرى رائحة لبن الأطفال البشعة والمنفرة. أعطي نفسي مبررا لكي أقوم من جوارها لأتخلص من الألم غير المحتمل، لكني أبقى ساكنا بل تنتابني رغبة في ضمها أكثر وأعنف. كدت أسألها بعصبية وتعالٍ أمازالت ترضع. تراجعت سريعا أمام صفاء جسدها.. أو ربما لشيء مستتر تحت

إهاب هذا الجسد. انتظم تنفسها تماما وراحت كما لو كانت في غيبوبة عميقة. هل سيمنحني جسدها، المتاح لي بكامله الآن والذي أتيقن أني مسيطر عليه وأني من الممكن أن أخترقه بكل قسوة بلا أي ممانعة حقيقية، سعادة ما؟ وهل لهذا الألم الضاغط عليّ من صلابة توتري أي معني؟ وي! كأنما أرغب في شكل آخر مختلف للعلاقة معها، شكل يتباين مع ما ظننت أني أريده منها يوم أن قابلتها في السينما. قمت متثاقلا بهدوء. ووقفت أمامها. شعرت بحركتي ففتحت عينيها فزعة. طمأنتها قائلا:

- أنت معي. لا تقلقي.

- .....

- قد غفوتِ قليلا.

- حلمت أني معك في مكان مرتفع وأنت تركتني وقفزت.

ابتسمت بإحباط ثم قلت لها:

- ربما.

صمتُّ برهة وانتابتني قشعريرة برد فقلت:

- حاذري أن تصابي بالبرد.

رنت إليّ بدهشة وقامت ببطء وهمت بارتداء ملابسها. لم تنظر إليّ لكني أدركت أنها حزينة. استدرت وتركت لها الغرفة وجلست أنتظرها في الصالة. بعد فترة سمعتها تتجه للحمام. نظرت للساعة ففوجئت بأننا ظللنا ساعتين راقدين بجوار بعضنا، كنت أظن أنها قد غفت لفترة وجيزة لكن يبدو أني لم أشعر أنا الآخر بوقتي. رأيتها تأتي من الممر فأسرتني حركتها مرة أخرى فقمت إليها واحتضنتها فسكنتْ ولم تتململ. ذراعاها ملقيان بجانبيها ولا شيء. تركتها بعد برهة. أتراها مثلية، تتأثر فقط بجسد أنثوي رائع كجسدها؟ أيكون للجمال الممزوج بجسد المرأة تأثير على الأخريات أيضا. فكرت في غرام كالعادة، كأني ألجأ سريعا للوحيد الذي أعرف أنه سيصدقني القول. غرام في كل ما حكته لي عن علاقاتها في الكلية وبعدها لم تذكر لي أي إعجاب

بجسد امرأة سواها، لكنها حكت لي ذات مرة عن صديقة حاولت أن تجرها مرة إلى علاقة سحاقية غير أنها لم تأبه بها على الإطلاق. لكن ترى ألهذا أي مدلول؟ أتذكر نظراتها الفاحصة المستمتعة بالتماثيل والصور العارية للرجال والنساء على السواء. لكن ألست أنا أيضا استمتع برؤية تلك الأعمال الفنية، هل ننظر لها نحن الاثنان من الجانب الجمالي فقط؟ أنا لا أحب أفلام الجنس، تستهوي غرام لأيام ثم تزهد فيها عندما ترى تأففي من تلك الأفلام. أراجع أفكاري، فأنا تستهويني مشاهد الحب العارية في الأفلام الجميلة. تهدهد حواسي بدفء مشع. لكن أليس لسطوة جمال جسد المرأة تأثير عليها هي أيضا؟ سأعاود سؤال غرام عن سطوة الجمال. عاودتني رائحة لبن الأطفال مرة أخرى لكنها كانت أشد حدة وقسوة وبها رائحة تخثر. أبعدتها عني قليلا ثم سألتها:

- هل تحبين اللبن؟

انزعجت، وبدت تقطيبة صغيرة على جبينها:

- لماذا تسأل؟

قلت وأنا أحاول أن أبدو لطيفا حتى لا أجرحها:

- أشم رائحته فيك.

انفصلت عني أكثر، بدت مستكينة وشاردة ثم قالت باقتضاب:

- نعم أحبه.

اتجهت إلى شنطتها الصغيرة وأمسكت بها قائلة:

- يجب أن أعود للمنزل. أريد أن أجالس أمي قليلا، فأنا لا أكاد أراها.

بحثت عن مفاتيح سيارتي وأخذتها وقلت لها:

- هيا بنا. سأوصلك.

- شكرا.

كان الجو قد استعاد برودته في الليل. تلفحت بالكوفية وانكمشت في ملابسها. وبعدما ركبنا السيارة وسرنا قليلا صامتين قالت:

- لا ترجعني سريعا، هل لنا أن نسير بالسيارة على الكورنيش حتى المندرة مثلا. المرور هادئ، صح؟

فيما بعد اكتشفت أنها كثيرا ما تستخدم تعبير (صح؟!) بتساؤله المندهش كأنها تريد أن تتأكد من اتفاقي معها.

استرخت قليلا بجواري وبدأ التوتر الذي اعترى كلينا ينفك. التفتت إلي وقالت:

- أكثر ما أعجبني في منزلك اللوحات الفنية المعلقة على الحوائط.

- إنها اختيار زوجتي.

لمحتها تنظر إلى دبلتي وكأنها تتأكد من معنى كلامي.

- أمتزوج أنت؟

شعرت أنها تتغابى.

– نعم. وإلا ما معني الدبلة الذهبية في إصبعي؟

غيرت الموضوع سريعا:

- المكتبة. إنها كثيرة الكتب بشكل لا يصدق.

فرددت بجملة شكلية بلا معنى تقريبا:

- المكتبة كلها تحت أمرك.

- شكرا.

ثم تداركت معنى الجملة فزدتُ:

- أتحبين القراءة؟

- لم أجربها من قبل سوى كتب الدراسة المملة. سواء في السعودية أو في اليمن، وطبعا في المعهد لم نتعلم أي شيء سوى ملازم الامتحانات. أتعرف؟ أنا حزينة جدا أني لم أتعلم شيئا، أحس أني لا أعرف أي شيء على الإطلاق.

- ووالدتك، قلت لي إنها مدرسة.

- إنها مدرسة ابتدائي وليس لديها وقت للقراءة. ووالدي يكرهها.

قلت ضاحكا ببعض الحرج:

- يكره القراءة أم والدتك؟

مطت شفتها السفلي بتراخ وأجابت:

- أظنه يكره الاثنتين.

- وعلاقتك بهما؟

- تستطيع أن تقول على الحافة.

- أي حافة؟

- حافة العلاقات.

صمتت ولم تكمل فلم ألح. وبعد لفة طويلة على الكورنيش أرجعتها للمنزل. رجعت البيت وجدت رسالة من غرام على مسجل الهاتف.

- حبيبي. أين أنت؟ اتصلت على محمولك عدة مرات ولم ترد. أرجوك طمئني عليك فور وصولك.

كنت قد أَصْمَتَّ محمولي طوال اليوم على أمل ألا أنزعج وأنا مع مريم. اتصلت بها.

- حبيبي كيف حالك؟ أين كنت؟

- آسف حبيبتي. كنت في المكتبة معظم الوقت وكان المحمول مُصَمّت.

- مخطوطات جديدة؟ يا لسعادتك.
- نعم. وأنت كيف حال العمل؟
- لا بأس به، وإن كنت قد مللت إلى أقصى حد وأريد الرجوع.
- دكتوراه في أمراض العيون تحتاج بعض الصبر و"النظر" أيضا.

سمعت ضحكتها من الجانب الآخر للخط. أعترف بأنها قد أوحشتني.

- على رأيك.

ثم أضافت متهكمة:

- الموضوع يحتاج إلى "نظر".

فقلت لها:

- أنت السبب. فأنت دائما مشغولة، لا يكفيك النشاط السياسي ولا العمل الاجتماعي، وفوق هذا وذاك الدكتوراه.

رنت ضحكتها على الجانب الآخر. ثم قالت:

- تركنا لك الماضي ومخطوطاته فلا تتذمر.
- ربما.
- على فكرة هل قرأت كتاب ميرلو بونتي "العين والعقل"؟
- لا.
- اقرأه. أعرف أنه سيعجبك لأنه عن الجمال.

ثم قالت ضاحكة:

- الجمال الذي سيطيح برأسك.

فقلت مقهقها:

– أتقولين إن الجمال هو "الحجاج" بالنسبة لي؟

– طبعا يا روح قلبي. الجمال قاتلك، وقاتلي معك.

ثم بغنج:

- لكنه ما كان سيلحق بك لو كنت أنا عندك في الإسكندرية، لو كنت معك الآن لكنت قتلتك قُبلا وسفحت دمك عشقا.

- بالله عليك يا غرام.

- ماذا؟ أتمل لأني أقول لك إنك البريمو. الألفا.

صمت لبرهة ثم قلت:

- هل رجع شريف إلى مصر؟ قد انتهي المؤتمر على ما أعتقد.

التقطت الخيط بذكائها الفطري وأجابت بما يبدو كأنه تلقائيتها المعتادة:

- آه. لا تتصور كم استفدت بوجوده خلال الأيام الخمسة الماضية التي حضر فيها إلى مدريد للمؤتمر.

- حسن.

- على فكرة قد أستغل الأعياد الآتية وأرجع لمصر. كم أشتاق إليك.

- رائع. أخبريني متى سترجعين.

ثم ردت بضحكة أنا أعرفها جيدا:

- حافظ على نفسك حتى أرجع لك.

- في انتظارك.

- سلام.

- سلام.

إنها لا تتغير. لكن هل أنا أتغير؟ ربما إلى الأسوأ. فكرت في مريم. تعجبت لأني أشعر أني أعرفها منذ زمن بعيد. سخرت فورا من نفسي ومن

هذه الفكرة المطروحة دائما بل والمبتذلة. رُح نِم مع إحدى عاريات محمود سعيد أرحم لك وأكرم.

❖

أهديتها مجموعة كتب انتقيتها لها بكل دقة حتى لا تمل من القراءة. ثم توالت لقاءاتي معها كل ثلاثة أيام تقريبا. أنا من يهاتفها دائما. تتهرب من الذهاب إلى بيتي بطريقة ناعمة، لكن كل مرة كانت تطلب استعارة كتب جديدة من مكتبتي. لا تمانع إن وضعت يدي على جسدها ملاطفا وممسدا شعرها. لكنها تبعدها بلطف إن اقتربت مغازلتي من البجاحة. تتركني أحضنها بل أظن أنها تفرح بهذه الأحضان فرح طفل صغير. لكنها تتهرب فورا وأشعر بنفورها إن هممت بتقبيلها. أتساءل عن المرة الأولى التي نامت في حضني عارية مستعدة تماما لأي فعل من جهتي. أعلم أنها لا تخدعني. أمني نفسي بمرة أخرى تترك لي فيها نفسها. هل الجنس هو ما أفكر فيه الآن؟ لا أظن، بل أنا متأكد من هذا. أكاد أجن. لماذا أشعر بشكل مبهم غامض أني سأموت إن لم أحتضنها. لكن لماذا تتركني أعبث بجسدها – بشروطها الجديدة – دون اعتراض؟

❖

– هل تريدين أن تتعاملي مثل باقي تلميذاتي؟

- لا طبعا.

- إذن؟

- لا أعرف.

❖

- أريد أن أشاهد فيلما جنسيا.

نظرت لها بدهشة. كانت تداري وجهها خجلا. أكملت:

- أنا لا أعرف شيئا عن هذه المسائل. ولم أشاهد في حياتي أيا منها.

تلاعبت في خيالي هلاوس لا حد لها. ورن جرس كأنه بداية طقس احتفالي. هل آن للغيوم أن تنقشع؟

- أنا عادة لا أحب هذه الأفلام. لكني أعتقد بوجود واحد أو اثنين في البيت.

- لم أستطع أن أتكلم مع أحد عن هذا.

ثم وهي تنظر إليّ وكأنها تستغيث:

- أنا لا أثق إلا فيك.

توترت قليلا. ولكن الخيالات ظلت تسبح حولي تغني أغاني المتع المراوغة حتى وصلنا إلى المنزل.

- اجلسي على هذا المقعد حتى أضع الأسطوانة في الجهاز.

بدأت الصورة تظهر على الشاشة. جلست جوارها. لكنها كانت مشدودة الأعصاب جدا. أمسكت يدها فكانت باردة متخشبة. رغم أنها لم تكن تنظر إليّ بل إلى شاشة التليفزيون إلا أني شعرت أنها متوترة تماما لوجودي. تركت يدها تنسل من يدي واستدرت أشاهد الفيلم. كان البطلان في بدايات اللعبة الجنسية ولم تكن البطلة جميلة على الإطلاق. شعر مهوش وابتذال متوقع. نظرت مرة أخرى إلى مريم، فرأيتها كأنما تحاول السيطرة على شيء مبهم لكنها غير هيابة أو خائفة. بل مضطربة فقط من وجودي جوارها. تركت الغرفة قائلا:

- سأدعك وحدك.

لم تعلق.

جلست في غرفة مفتوحة على الصالة أراقبها منعكسة على مرآة جانبية، محاولا أن استشف أي تغير فيها. كانت ساكنة لا تتحرك. بعد فترة لم تطل، قامت وأغلقت التليفزيون. وجاءت إلي وقالت بعين خابية:

- أشكرك.

فقلت بنبرة بدا فيها بعض السخرية غير المقصودة:

- وما رأي الهانم؟

حركت عضلات وجهها بطريقة توحي بالتقزز والابتعاد والنفور وعدم الفهم.

قمت وحاولت احتضانها. لاحظت حبات عرق متناثرة باردة على جبهتها. سكنت للحظة ثم ما لبثت أن تملصت مني وأمسكت شنطتها القطنية الصغيرة قائلة:

- هيا بنا. أريد أن أستنشق بعض الهواء.

فتحت لي الأشباح المتراقصة بوابات السخرية وانطلقنا جميعا للخارج.

❖

شعرت أني عتيق جدا ولا أنتمي للعالم الملون وأني أكمل الفيلم الستيني عندما قالت لي وهي تعيد لي مجموعة الكتب وتطلب مجموعة أخرى أنها تعتبر اليوم الذي تعرفت عليّ فيه عيد ميلاد جديد لها، لأنها تبدأ حياتها بطريقة صحيحة كما كانت تريد. وتردد صوت غرام وهي تقول لي مازحة: أتركُ لك كل الماضي.

سنوات طوال تفصل بيني وبين غرام وقرون بيني وبين مريم. أسميتها ساخرا: مريم كاسبر هاوزر.

❖

- أتركني أقود السيارة.
- هل تعرفين القيادة؟
- نعم تعلمتها في السعودية.
- في السعودية؟؟
- نعم.
- لكني أعرف أن قيادة البنات للسيارات ممنوعة هناك.

قالت لي وكأنها تكتشف سذاجتي:

- أنت لا تعرف كم هي كبيرة وواسعة. تستطيع أن تعمل أي شيء يخطر على بالك.

قلدت طريقتها في الكلام وأكملت:

- السعودية واسعة جدا. "صح؟!"

فبانت أسنانها الرقيقة بين شفتيها وهي تضحك على محاكاتي لها. تركت لها السيارة وأنا متوجس من طريقتها في القيادة. لكنها ما أن أحكمت قبضتها على المقود حتى بانت قدرتها الهائلة على التحكم وكأنها امتلكت السيارة وما حولها ومن بداخلها.

رجعت إلى مكتبي مهموما. بالي مشغول بعواقب هذا الأمر. أفكر فيهما معا. وأكره مشاعري، ليس لكونها خيانة ولكن لكونها تسيطر عليّ. فالخيانة لا أهمية لها في نظري. شيء بارد ناءٍ لا يؤثر.

لمحت المخطوط الذي كنت قد نسيته في غمرة الأحداث الماضية. نعم، عربيدي الرائع ما حكايتك أيها السافل؟ أخرجت المخطوط بحرص من مكانه وبدأت في تكملته مُحتمِلا إطنابه.

❖

أما بعد، يا أحبائي، فقد سمعت هذا من مبسمِه الجميل الذي يزينُ محياه الوضيء الذي ما برح يشعُ بنورٍ رباني لم يخبُ بطول الزمن ومرورِ الدهرِ وأهواله. كنا نتسامرُ في ليلة بدرية بقمر زاهر ونجوم تتلألأ، ولعب الجمالُ برؤوسِنا فأزادنا سكرا وانتشاء، فتشجعتُ وسألته عما يدور حوله من أقوالٍ تحار فيها العقول، فاضطربَ قليلا ثم لاحتْ بشائرُ القصِ عليه وحدثنا فكان كما قال الشاعر:

يديرُ كوؤسَ فيهِ ومقلتيه
فيُسكِرُني من السكر المباح

حدثَ وباحَ فوعيتُ وحفظتُ. ولكي تُفهم الحكاية عليّ أن أبدأ القص عن أبيه وعمه قبل أن يولد هو، بل قبل أن يتواجد حيث إنه لم يولد. أتتعجبون؟ نعم لم يولد. وهاكم بدايتها:

فـي بلاد الترك بعـد أنهُر الهنـد كانـت توجد مملكة عليها خاقان عظيم يقال لـه "جهـان تـاب" وهـو بلغـة التـرك يعنـي نـور العالم وكان حاكما عادلا، وله أخ هـو وزيـره فـي ذات الوقـت يقـال لـه "آق طـاي" أي المهر الأبيض واسع الصدر رحبه، ذو علم غزير مشتهر به وحكمة جابت الآفاق، فكان محبوبا من أخيه الملك ومن رعيته.

وذات صـباح دخـل الملـك جهانتـاب على أخيه الوزير آقطاي في ديوانه فوجده مهمومـا عليـل المحيـا شـاحبه، فهـرع إليـه مستفسرا وسأله: ماذا يهم بالـك ويسـوؤك وأنـت أخـي ووزيـري وولـي أولادي بعـد مماتي وحارس مملكتي، لك من الأراضي ما يقارب أراضيّ، وأنت باعتراف كل النـاس ذو الشرف الأبذخ؟ فجاوبه الـوزير بأنـه لـم يـنم الليلـة البارحـة حيـث أرقـه السـهاد وهاجـت عليـه الوسـاوس وهـو يفكـر فيمـا أعطـاه الله مـن وسـع خيراتـه ومـا معنـاه. فابتسـم الملـك وأجابـه: مـا يـؤرق أخـي الحبيـب سـوى عقلـه الـذي ينهكـه لأنـه لا يعقله معقل جد ويتركه شاطحا في خياله.

ثـم أضـاف الملـك ضـاحكا: تـزوج، تـزُل همومك، وتقهر وساوسك، أما رأيت للآن من تأسر لب أخي؟ ابتسم آقطاي وقال:

هذا أخٌ لك يَشتكي إذ تشتكي وكذا
الخليلُ إذا أَحَبَّ خَلِيلا

وأردف أن هذا لقسمة ونصيب.

ثـم أطـرقَ سـاهما يفكـر فيمـا اقترحـه عليه أخـوه. لا! إنها ليسـت قسـم ونصـيب فقط، هو يحب أن يكون له ولـد مـن صـلبه لكنه لا يأمن النساء، يخـاف مكـرهن، يشـك دائمـا فـي زوج أخيـه ومحظيتـه وسـراياه. تطوف آلاف القصص على مخيلته ...امرأة لوط، امرأة عزيز مصر، يرثي لحال صديقيه ولدي ملك ساسان: شهريار وأخيه الأصـغر شاه زمان اللذين خانتاهما زوجاهما، وتفكر في حال شهريار الآن وهو يقتل عـذراء كـل ليلة عسى أن يشفي غليلـه. وقـد حكيـا لـه، الأميران شـهريار وشـاه زمـان عـن الصـبية التـي إلتقايـاه وهـى تخـون عفريتهـا النـائم

طمأنينـة، بخـاتم مـن كـل عشـيق وفـي كيسها أكثر من خمسماية وسبعين خاتما، وحازت على خاتميهما بمضاجعتهما، فكر في جنس حواء كله وتذكر قول الشاعر:

هَيهاتَ لا غَدرَ في جِنٍّ وَلا بَشَرٍ إِلّا يُخالُ مُعَدّا فيكِ مَوجودا

ثم التفت إلى أخيه فقال وهو يصف حاله:

وَتـوقَ مِـن غَـدرِ النِسـاءِ خِيانَـة فَجَمـيعُهُنَّ مَكايدُ لَكَ تَنصب

لـا تَـأمن الـأُنثى زَمانـك كلَّـه يَومـاً وَلَـو حَلَفت يَميناً تَكذِبُ

فضحك الملك وأحب أن يسري عن أخيه ويهون عليه شعوره، فقال له: ألم تسمع أن هذا من شيمهن ولاتثريب عليهن وكما قال الشاعر:

إذا غَدَرَت حَسناءُ وَفّت بِعَهدِها فَمِن عَهدِها
أَن لا يَدومَ لها عَهدُ

فرد الوزير آقطاي: وما كذب الشاعر إذ قال:

والغانياتُ بناتُ غدرٍ من أبٍ يضربن
في نسبٍ إليه عريق

فقال الملك جهانتاب بعد أن ترك الهزل وتفكر في أبيات الشعر تلك من فم أخيه الوزير آقطاي وعلم ما يمنع أخاه من الزواج: يا أخي، والله رغم علو مكانتك وسعة مداركك، إلا أنك ما فتئت تكره النساء ولا تثق بهن. وما كل الطير بمتشابه. والولد يتبع المرأة. ووالله لولا حبي لك وتقديري لذاتك ما همني أمرك، ولو كان الله قد جعل لنا سببا دون نكاح

لكان الحل تحت أيدينا وكنت أمرت به أنا الخاقان لألتمس لك كل السعادة. لكن ما باليد حيلة، استعد مرحك ومروءتك وحلمك وعسى أن يلهمنا الله الحكيم. أما الآن فهيا إلى الصيد ففيه ترويح للنفس العليلة. قم بنا ولا تتقاعس.

أمر الملك جهانتاب بالإعداد للصيد وقد كان مولعا بالقنص بالجوارح والكلاب والفهود، لا يمله، وله خيول تشد للصيد. تهيأ الجميع للسفر، وخرجت العساكر والخيام إلى الفيافي حول المدينة. وبدأ القنص وتسابق الجميع وعلت الهمم. وكان للوزير آقطاي كلب صيود يحبه ولا يخرج للصيد أبدا بدونه، اسمه آتاق وهو الجريء الشجاع. وعندما كان يرضي عليه سيده كان يدلله باسم آتاق خويلو أي حاد الطباع. ولما أقمر القوم واكتمل البدر في تمامه، انطلق آتاق في إثر حيوان لم يتبينه آقطاي، فاسرع خلفه علّه يحصل على صيد نادر وكان يثق في كلبه الماهر. خب الفرس خببا حتى اقترب من الكلب آتاق فكاد يلحق به، لمح آقطاي ظبيا نافزا

يسارع في العدو، لكنه بعد برهة لاحظ أن الظبي كلما ابتعد عنه الكلب تلكأ قليلا في عدوه ونفزه، وكلما اقترب منه الكلب أسرع هاربا وكأنه يحثه على مطاردته. وكانت الصحراء تومض بسنا البدر. بقى آتاق منساقا وراء الظبي وكأنه قد سحر. اندهش آقطاي من تصرف كلبه ومن انسياقه نفسه وراءهما وأنشد قائلا كأنه يناديه:

رأيتُ في الصحراءِ ظبياً غدا مرتعُه
لُبَ قلوبِ الرجال

في إثرِه كلبٌ أسيرٌ له وعادة
الكلبِ يصيدُ الغزال

وظل الثلاثة في تتابع، الظبي ثم آتاق فآقطاي على فرسه، تتملكهم وتيرة واحدة يتحكم بها الظبي حتى تهادوا وكأنهم في نزهة في رحاب هذه البيداء المنيرة. أحس آقطاي أنه قد انقطع عن أخيه الملك بل انقطع عن كل العالم الذي يعرفه. لم يفزعه هذا الشعور وهو الفارس المغوار المقدام. ظل يتقدم حتى لاحت نار تتلظى

فاتجـه الظبـي إليهـا وتابعـه الصـيادان، الفـارس وكلبـه. كـان يجلـس بجـوار النـار ناسـك هنـدي متأملا، بـرك الظبـي بجانـب الناسـك واسـتراح فـي كنفـه فاحتضـنه الناسـك وجعـل يربـت عليـه. أقبـل الـوزير آقطـاي علـى الناسـك، فترجـل عـن فرسـه وحيـا الناسـك فحيـاه مبتسـما ودعـاه للجلـوس وأقـراه فأكرمـه. وبعـد برهـة مـن الصـمت قـال الناسـك لـه: كنـت أنتظـرك. فدهش الوزير وقال له هل تعرفني؟ فقال له: كنت أنتظر الوزير آقطاي بن شارلامق. فتعجب الوزير منه وهو يذكره وينسبه إلى أمه. ثـم قـال: نعـم، أنـا هـو. فقـال الناسـك: أنت محزون، مشغول البـال، ورغـم رفعتـك وثرائك إلا أنك ما برحت تتفكـر فـي مسألة تظن يا مسكين أن ما سبقك بها أحـد مـن العالمين. فصَدّقَ الوزير على كلامـه. فقـال الناسك: بُح. فأجابه الوزير: ألا تعلـم؟ فكـرر الناسك الأمر: بح. صـمت الـوزير برهـة ثـم بـدأ فـي الكلام فحكـى واشـتكى. وبعـدما انتهى من أمره قال لـه الناسـك: مـا تطلبـه لـيس بمسـتحيل لكنـه لـن يشـق عليـك وحدك، لكن على من تترجـاه أيضـا. والأمر

لـك بعـد التفكـر. تعجـب آقطـاي واسـتحث الناسك على الكلام فأكمل هـذا قائلا: فـي جزيرة من جزائر الهند العظمى، تقـع تحـت خـط الاسـتواء، ذكرهـا الرحالـة الـأولون، وقالوا إنها أعدل البقاع على وجه البسيطة جـوا، فهواؤهـا نقـي وشمسـها وضّـاءة بلا أوار ولكنها ذات الحرارة المنضبطة لطينة الجزيـرة التـي امتـزج فيهـا الحـارُ بالبـارد والرطـبُ باليـابس بقـوى متعادلـة، فتصـير متكافئـة للأرحـام مهيـأة للخلـق بـإذن ربهـا. في منتصفها يوجد عُيَيْنة ماء حار بها طين لازب ساخن. فـي ليلـة بـدرها تـام، التحـفَ بوحدتك وقرب قربانا لربك ثم خصبها بماء حياتـك. سـتوهب خلفـا لـم تـر لـه مثلا مـن قبل. ثم صمت الناسك وطال صمته فقال له الوزير:

أَيا شيخُ زِدني مِن حَديثِكَ إِنَّهُ حَديثٌ عَجيبٌ كُلُّهُ وَغَريبٌ

لكن الناسك استمسك بصـمته وبقـى يحدق في النار ويتمتم. ظل الوزير آقطـاي يتفكـر فيمـا قالـه الناسـك وهـو بـين رجـاء التصـديق وخـوف خيبـة التكـذيب، حتـى

تجلت الشمس من وراء الجبال. استأذن الوزير من الناسك الذي ودعه قائلا: إن نويت وفعلت فلا تنس عهدك بتقديمك القربان. أمتطى الوزير فرسه وتبعه كلبه مقتفيين آثار مقدمهم وحاسة الكلب آتاق للرجوع إلى حاضرة الخاقان. مر يومان حتى لاحت المدينة في الأفق. وما أن وصل الوزير إلى البوابة الرئيسية للمدينة حتى أُعْلم الملك برجوع أخيه الوزير من الصيد، فأتى مسرعا يستقبله وما أن رآه حتى تعانقا وقال له: قد طال غيابك وأقلقتني عليك. ثم تقدمه لخميلة في حديقة القصر فجلسا في أيكة تحت الشجر وقص الوزير على أخيه الملك ما قد جرى بينه وبين الناسك الهندي وحديثه الغريب. تباحثا الأمر معا ورجعا لكتبخانة القصر وقرآ كتب السفر والرحالة. تجولا في الكتب مع ابن بطوطة وابن حوقل، والإدريسي، والإصطخري وأخيرا وجدا ضالتهما في كتاب المسعودي الشهير مروج الذهب. تدارسا المسالك والدروب والبحار حتى يصلا إليها. قرر الملك أن تخرج حملة تتجه إلى الجزيرة المرومة ولكن أخاه الوزير

شكره وقرر أن يسلك هذا السبيل وحده على مشقته لأن الناسك الهندي قد أمره بهذا. حاول الملك جهانتاب أن يثني أخاه عن عزمه وعطف عليه من وعورة ما هو مقدم عليه، لكنه نزل في نهاية الأمر لرغبة أخيه. بدأ الوزير يستعد لرحلته إلى أن أتى اليوم الذي قرر فيه الانطلاق فتزود، ثم ودع أخاه الملك وشد رحاله مستقبلا طريقه. طالت الرحلة حتى كاد أن ييأس إلا أنه في نهاية الأمر وقف على شاطئ الهند مصوبا نظره في اتجاه تلك الجزيرة الغامضة التي سأل كثيرا من الناس عنها إلا أن أحدا لم يدله عليها فقرر الاعتماد على كتاب المسعودي الذي اصطحبه معه. اكترى من أفضل النواخذة من أصحاب المراكب سُنبوقاً وهي نوع شهير وجميل من المراكب العربية ببحاريه والنوتي. تولى عنهم تحديد الطريق في عباب البحر. تتابعت النهارات والليالي وبدأ البحارة يتبادلون الحكايا عن البحر والجزر وعجائب المخلوقات فمنهم من حكى عن بحر الحبشة وسمكه الذي له وجه كوجه بني آدم وأجسام مثلهم وكيف أن

الصيادين في أطراف السواحل والجزائر والشعاب يتعاشرون مع تلك الكائنات ويتناسلون. وأقسم آخر أنه قد رأى في بحر فارس الأمواج وهي تصطك ببعضها ليلا فتحدث ناراً هائلة من انقداح المياه حتى ليظن راكب البحر أنه يعبر بحراً من نار، وحكى الكارين وهو كاتب السفينة عن الحيات البرية والبحرية التي تقتل بالنظر. واختلطت الأحاديث عن جزر النساء والجزيرة السلحفاة والقناطر التي تصنع من ضلع سمكة واحدة، شجر الوقواق، النمل المتوحش، الطيور الجارحة وجبال المغناطيس، والجزيرة التي لا تصلها أبدا المراكب سالمة، وعن زنج يخصون الغرباء، وأقوام بأذناب يأكلون البشر، جزر الأصنام المتكلمة، وطيور السمندل التي لا تحترق بالنار مثل طيور الرخ، والبحر الموحل الذي لا يوجد ماء به. تتابعت النوادر حتى شرد الوزير آقطاي في معضلته فقال:

في كلِّ بحرٍ عجائبٌ وأنا ال بَحرُ
ولكن عجائبي فِكري

❖

تقول لي إنها تبحث عن عمل يساعد أمها في تصريف أمور المنزل حيث إن والدها قد نسيهما تماما ولا يريد أي علاقة بهما. أرسلتها بكارت شخصي مني إلى أحد الأصدقاء. أعرف أن عينه ستزوغ عليها لجمالها الخاص جدا الذي تتمتع به، ولأنه "نسوانجي" درجة أولى كما يصف هو نفسه، كنت أختبرها وأختبر نفسي أيضا.

ثم هلت غرام كنسيم جميل مفاجئ رغم التوقع. ظهرت بشروقها المعتاد. المعتاد المعتاد.. لم هذه الكلمة؟ بعد اللحظات الأولى ورغم تكرار اكتشافي صدق اشتياقي لها كل مرة، إلا أن الاعتيادية تجثم بشكل قوي وتشكل علاقتنا، بل يجب أن أقول تشكل كل علاقاتي. حتى مع العمل الجديد في المكتبة. عمل ممتع لكن لا يخرج عن المعتاد. علاقاتي مع زملائي في الكلية، بل مع الطلبة الذين هم مصدر تجدد وخصب لا ينتهي، كل هذا ينتهكه الاعتياد. نعم، هلت غرام مرة أخرى. كانت أعياد الكريسماس فرصة لها كي تعود إلى مصر لمدة أسبوعين كاملين. استقبلتها في مطار برج العرب، وكانت متوردة حقا بالانفعال والصحة. تأملتها وهي تتجه نحوي تدفع حقيبتها الممتلئة المكتظة بالهدايا. صورة طبق الأصل من جدتها الإنجليزية كما في صورها القديمة على شاطئ ستانلي. شعرها النحاسي على بشرتها البيضاء المشربة بالحمرة. نمشها المنمنم الضاحك. تلتهمني بعينيها الهريتين. تمحو هذه المرأة الصغيرة في لحظة أسرارا ممكن أن تختبئ تحت جلدي. قبلتها بلهفة قلبية صادقة. تتكلم طوال الطريق إلى البيت في الأزاريطة عما رأته تعيد ما قصته علي. الجمال المترع بالحياة في أسبانيا بأحوال مقاطعاتها المختلفة. ثم تلتفت فجأة وتقول:

- انتظر لتر ما أحضرته لك. دعك من الموسيقى التي أنا متأكدة أنها ستعجبك.

أخمن كالعادة ماذا أحضرت. ملابس داخلية مثيرة لها ولي. لا أتمالك نفسي فأضحك، وأرمقها بإعجاب لكل تلك الحياة التي تتحرك بها. أعلم أن هذه الحيوية لم ترثها من العرق الأجنبي بها بل من غليان عرقها الصعيدي

الساخن. هذه الفوارة المجنونة التي أنا زوجها وحبيبها. في البيت، نلقي بالحقيبة ونتعانق بقوة. تنسحب مني وتقول:

- انتظرني.

أخرج إلي الشرفة لأدخن سيجارة. وأغيب عن الوجود بجمال هذه السماء التي تظللنا. أتذكر السيدة إيليني اليونانية التي قالت لي إنها لم تر في حياتها كلها سماء كسماء الإسكندرية. هذا اللون الأزرق المذهل. ابتسمت لتذكري إيليني. سأقص لمريم قصتها. أعتقد أنها ستعجبها. سمعت غرام تضع أسطوانة وانسابت منها موسيقي إسبانية مبهجة من الفلامنكو. ثم شعرت بها تلتصق بظهري. استدرت إليها واحتضنتها. كانت حلمتاها كفوهتين لمسدسين يخترقان صدري. فكرت لماذا يرتبط الجنس بالموت في الأدب. بدأت بتقبيلي برقة. كرهت عقلي الذي بدأ يسيطر على فكري، أبعدته قدر المستطاع. هذه البَهْجَة زوجتي، وأنا أشتاق لها، جسدها مشتعل بالرغبة منتظرا. أستدعي جسدي من عالم بعيد كي يتوافق معها. لاحظت انها ترتدي قميص نوم جديد، عار شاف يناسب بشرتها تماما. هذه المجنونة لا تترك شيئا للصدفة. تعرف ما يناسبها وما يعجبني. دخلنا من الشرفة متعانقين. ورقدنا على الفراش فتلاحمنا سريعا. ذابت مني في حميم من التوتر المتصارع للجسدين. همست لي كعادتها عندما تقارب الوصول لجنة نشوتها: تهوسني! أعرف مواطن المتعة عندها كدرس مقرر، فحفظته عن ظهر قلب لحبي للمُدَرِّسَة على الرغم من كرهي للمادة. أتلاعب معها كما تريد هي مني. أُسَمِّع الدرس سريعا كيما أتخلص من عبء النص. أوصلها سريعا لنقطتها المطلوبة، لكنها لا تفتر بل تبدأ الآن الحميمية الحقيقية، تتشبث بي أكثر وتضحك ضحكا مكتوما ثم تقهقه عاليا..

تقول لي وسط صخب ضحكاتها التي تعودت عليها:

- أتعرف شيئا ... أنت تحفة .... لا مثيل لك.

فقلت ضاحكا بيأس وقد تراءت لي مريم مبتسمة ابتسامتها المبهمة التي تؤرقني دائما:

- ألا تملين من قول هذه الأشياء؟

- أنت حبيبي.

صمتت قليلا وقالت وهي تعتدل على الفراش وتواجهني وعيناها بين الضحك والضجر:

- شريف شكله مضحك وهو عار.

ظللت محتفظا بصمتي، فأكملت بجدية:

- أنت تعرف أني لم أخنك من قبل.

شعرت بتوتر شفتي قليلا وأنا أقول:

- أعلم هذا.

كان الملل كله يتجسد داخلي كضباب أسود يملأ كهوفا منسية منذ زمن.

لم تأبه إلا لما تريد أن تقوله، احتضنتني بشدة وأعادت ما قالته:

- شريف مضحك تماما وهو عار. لا يقارن بك أبدا.

تراءى لي شريف بجسده الفتي ولم أفلح في تخيله وهو عار. أقول لنفسي هذه المرأة عبيطة دون شك.

- لم يحدث شيء.

ثم أكملت مصححة كلامها:

- كاد أن يحدث شيء، لكنني لم أستطع. بصراحة جذبني شريف ولا أنكر أنني أعجبت بشخصيته إلى حد ما. ذهبت إلى غرفته بعد المظاهرة التي حدثتك عنها عندما هاتفتني. كنا نمتلئ حيوية وقوة وكانت المظاهرة كأنها كائن حي قوي يهدر في سماء مدريد. شربنا كأسين في بهو الفندق ثم دعاني إلى غرفته.

تخيلت شكلهما وهما يصعدان سلالم الفندق. شعرت بدهشة لأن الصورة تجلت واضحة لي بشكل مذهل.

رفعت رأسها ونظرت إلى عيني، لم أنظر لها. لم أكن غاضبا. خطر على بالي صديق دراسة في إعدادي لم أره منذ زمن طال، تذكرته وهو يقص عليّ محاولته الأولى مع بنت الجيران، لم أتذكر التفاصيل بالضبط لكن كل ما أتذكره شكلنا ونحن نكاد نموت من الضحك على ما يقوله وخيبة أمله التي ارتسمت على محياه. شعرت بها تدفن رأسها في صدري مرة أخرى وهي تكمل حديثها.

- قبلني قبلة خفيفة ثم تركني لوهلة ليدخل الحمام وخرج لي ببرنس. لم يعجبني لون برنسه وبقيت أحدق فيه.

أفهم تماما ما تتحدث عنه، أعرفها وهي تنتقد لون شيء ما، أو تعلق على تناغم فقد اتساقه بضربة فرشاة غشيمة كارهة للتناسق. لكني أعرف أيضا أنها ذات حس فائر وأرى فورات نشوتها المتعددة معي وكيف أنها تتغاضى معي عن هفواتي اللونية، أو قصة شعر لا تعجبها أو حتى كوني غارق في عرق لزج في يوم حار. تساءلت كيف يكون عندها كل هذه الدقة في الإلمام بالتفاصيل الكثيرة، أتصور أن النساء لهن قدرة إلهية علي الافتتان بالتفاصيل الدقيقة. ثم خطر عصام صديقي على بالي وهو يؤكد على أهمية ألا أتزوج من أجنبية لأهمية غشاء البكارة. أعرف أن غرام رغم فورانها العاتي غير متهتكة، ربما للحس الجمالي داخلها أكثر من أي شيء.

- اقترب مني وبدأ يقبلني مرة أخرى.

خرج صوتي غصبا عني:

- وكيف كان شعورك؟

- لا شيء على الإطلاق، كنت أفكر فيك أنت.

صمتت ثم ضحكت بشكل آلي وهي تقوم عني وتقول:

- انفتح البرنس وشريف تركه ينزلق.

ثم انتابتها موجة ضحك حقيقية وعاتية:

- فكرت للحظة أني لو تركته سيكون إحباطا كبيرا له. لكني لم أستطع أن أفعل أي شيء. تركته بين دهشة وإحباط لكلينا... أنا أحبك حقا.

أطل طيف حزن بعيد من عينيها وهي تقف أمامي عارية، مهوشة الشعر الأحمر فصارت كأنها تحترق في حزنها المفاجئ.

- أنت لا تحبني.

هممت بالاعتراض، فقالت:

- أعني كما أحبك. لا يوجد ...

وقفت صامته ولم تكمل كلامها.

لعنت في سري الحب وسخافاته. قمت وذهبت إليها واحتضنتها وقلت لها وأنا أتضاحك وملتحفا بعالم كامل من اليأس:

- ألا ترين أن قصتك بدأت من مظاهرة مناهضة للحرب ضد العراق وكادت أن تنتهي بالحرب على فراش.

نظرت إلى بوجه هادئ بعد عاصفة مكللة بالنار ونمشها يزيد من فتنتها. ابتسمت فابتسمت ثم اتسعت ابتسامتها حتى بانت أسنانها الكبيرة الناصعة، ومن عينيها كانت روحها تتقافز بحيوية وضجيج ثم قالت بكلمات غير واضحة بسبب ضحكها:

- كان شكله مضحك خالص!

فبدأت أنا أيضا في الضحك ثم تحولت ضحكاتنا لصخب عال وانكفأنا على بعضنا وسقطنا من عنف اهتزاز جسدينا على الفراش. ولكن في زوايا الغرفة كانت الوحدة تطل علينا وتكلل ضحكنا بزهور مقابر وتترعنا بتعاسة دفينة.

❖

وطالت الرحلة نحو ثلاثة آلاف فرسخ وأقله ألفان وثمانمائة وهو مسيرة أربعة وثمانين زاما ونحوها. والزام لمن لم يركب البحر هي وحدة قياس المسافة المطلقة في البحر وهي تعادل مسيرة ثلاث ساعات بالشراع في أجواء معتدلة، حتى وصلوا بعد لأي إلى الجزيرة، لكن البحارة على جسارتهم انتابهم خوف شديد لما رأوه على شواطئها من غرائب لم تألفها العين حيث إن لا شيء يظل ثابتا لفترة طويلة وتتغير المشاهد من لحظة إلى أخرى. فما أن أنزلوه حيث طلب حتى قفلوا راجعين إلى لج البحر وهم في غاية الفزع، ويصيحون وكأنهم ممسوسون بأن هذه الجزر مسكونة بالعفاريت التي تكره بني آدم منذ أن خلقه الرب الكريم. كان ثابت الجنان والقلب فلم يأبه لهروبهم، فأولاهم ظهره بعد أن أشار لهم أن يرحلوا. بدأ مساره داخل الجزيرة محاولا الوصول إلى سرتها ومنتصفها. شاهد من النبات والحيوان ما كاد يخلع لبه ويطير عقله، لكنه لم يلحظ أي إنسي. كانت الكائنات تتبدل وتتغير في كل آن، فإذا اتجه إلى

جـدول مـاء وجـده جـذعا هائلـا لشـجرة، الجبـال تتلاشـى مـن أمامـه لتتحـول إلـى سـحاب أبـيض وهكـذا حتـى أمسـى وهـو مقـارب لليـأس مـن معرفـة الاتجاهـات. وعنـدما ظهـر البـدر المنيـر فـي السـماء تشكك في وجوده وفـي نـوره لكـن التعـب قد حل عليه وانهكه فجلس على الأرض ثم اضجع حتى غلبه النعاس فنام. ولما استيقظ كان البدر مازال منيرا لكنه أحس أن الثبات قد استتب والتغيرات انعدمت فتجلى المشهد أمامه فوجد نفسه على حافـة عيينـة المـاء التـي حكـى لـه عنهـا الناسك الهندي فهي كما وصفت تماما. رفع رأسه ليتأكد من اكتمال البدر وتمامه ثـم نـزع ملابسـه ونـزل عاريـا فـي العيينـة فانتابـه شـعور لذيـذ كأنـه يقفـز إلـى ذاتـه براحة لم يعهدها من قبل. احتوته العيينة كما احتواها وتمازج بمائها الحار فـي عـالم آخـر خـارج عـن إدراكـه حتـى ارتعـش مـن النشوة فقذف بماء حياته مبتهجا كأنه قد وصـل للـذة الكبـرى فكـاد أن يغيـب عـن وعيه. ارتخت عضلاته كلها وانحل جسده بهـذا الشـعور الممتـع وتـرك نفسـه تطفـو

على الماء قليلا\ ثم خرج من العيينة واستلقى على الأرض بجانبها مستمتعا، ثم صار يراقبها مستغرقا فيما يحيا وما تشاهد عيناه، غارقا في بهاء البدر.

فيا لكِ من ليلة بتُّها أنادم بدر دجاها البهيّا

دامت الليلة حتى ذابت مع ذهبِ "الأيا" [شعاع الشمس] الذي غمر المكان بطلوع شمس النهار وعند زوالها في منتصف السماء انتبه الوزير آقطاي إلى العيينة حيث تمخضت عن طينة متخمرة كبيرة ثم حدث فيها نفاخات لزجة وبقبقة ثم من وسطها طفت فقاعة رقيقة جدا ما لبثت أن انقسمت مزدوجة بقسمين، بينهما فاصل شف عما وراءه ثم تكرر الانقسام حتى امتلأت بهلام لطيف في غاية الاعتدال. تابع الوزير ما يراه في حالة من الذهول وهو يرى هذا الهلام يتحول إلى سمكة ثم ضفدع ثم ميمون ومنه إلى جنين بشري متفصل كامل الأعضاء، فتعْلِق به الروح وتتشبث، سبحان مبرئها، بها النفس التي سواها ملهما إياها فجورها وتقواها. تبخر غشاء الفقاعة فطفا

الوليد على سطح الماء حتى وصل إلى حيث كان الوزير الذي بقى مبهوتا بما رأى، ثم لم يتمالك نفسه واحتضن الوليد الذي كان يشع نورا إلهيا فلم يتمالك الوزير إلا أن صاح سبحان المبدع من له الكمال، ما أجمله!

حُسنٌ تَشَكّلَ صُورَةً بشريةً سُبحان ذاكَ الباري الخَلاقِ

وشعر من توه أن هذا الوليد هو ابنه حقا.

بعد أن تملى بالوليد ورفعه إليه حتى بدأ في البكاء جوعا فاحتار ماذا هو فاعل وتلفت حوله عله يجد مخرجا، لكن عقله رفض أن يجد حلا، فأخذ الوليد بين يديه وراح يبحث، من بعد أتت غزالة رءوم كأن الله قد وكلها بإطعام هذا الوليد كأنه طلاها، فهدأ واستقر فنام. سار الوزير وهو يحتضن ابنه في اتجاه الشاطئ وجاورته الغزالة في المسير، وكلما جاع الوليد كان الوزير يتركه للغزالة لتلقمه ثديها وترضعه، حتى وصل إلى البحر، لكنه لم يجد أي سفين في انتظاره، فتفكر الوزير في

كيفية الرجوع ومعه هذا الوليد الجميل وهو ما لم يخطر له على بال من قبل لأنه كان متشككا فيما سمعه من الناسك الهندي لكن أمله دفعه، وها هو يمسك بابنه في أرض لا يعلم عنها شيئا، فصاح يدعو الله عز وجل أن ينقذه من هذه الورطة البلية ويخرجه من هذه الطامّة لأجل ابنه الذي استرزقه فقال الكلمة التي لا يُخذل من يقولها إطلاقاً: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فإذا بإحدى النخيل تتمايل أمامه ثم تتحول إلى عامود هائل من نار هادئة يتلوى حتى استوت عفريتا من الجن. وبعد برهة قال العفريت للوزير: أُمرتُ أن أقلك حيث تريد، فاركب ولا تخف. امتطى الوزير محتضنا ابنه ظهر العفريت فاستوى عليه واستقر، ثم بدأ العفريت في الطيران عاليا وحلق في كبد السماء وتراءت المناظر للوزير من بحور وجزائر وأراض حتى رأى بلاده وحاضرة الملك وقصر الخاقان أخيه. هبط العفريت في جناح الوزير فما أن نزل عن ظهره ووقف على الأرض حتى تلاشى العفريت. وضع ابنه على الفراش بين طياته ثم

سمع الوزير جلبة خارج بابه ثم ما لبث أن دخل الملك جنهتاب عليه مرحبا وهو يقول ياهلا بك يا أخي الحبيب، قد رأى الحراس ناراً طائرة تدخل في جناحك فأنبَئُوني. حمدا لله لرجوعك سالما إلينا. قسما بالله، لقد أوحشتنا وآلمنا غيابك طول هذه الفترة. احتضن الوزير أخاه الملك وهو يبش لفرحة أخيه برجوعه إليه. وقبل أن يقص عليه الأحداث التي مرت به أتى الوليد بصوت خائر فالتفت إليه الرجلان بين اندهاش الملك وسعادة الوزير. قال الملك وهو يرفع الوليد بين يديه: سبحان الله العلي القدير، أَجْمِل به! ما أبهاه حفظه الله كأنه يشع بنور سماوي! هل أسميته؟ رد الوزير: ليس بعد! لكنني كلما نظرت إليه أشعر بالطمأنينة، أنا أفكر في اسم "أمان" أو "سلام" فقال الملك أنا أراه منيرا كالكهرمان. اسمع، ما رأيك أن نسميه "سلامان" فهو يشمل الثلاث. فأقره الوزير قائلا: لك الحق، كأن هذا الاسم قد خلق له. "سلامان". ثم قال الملك: لكن قص عليّ ما تم معك في رحلتك تلك التي طالت عامان ونيف. تعجب الوزير الذي كان يظن

أن رحلته لم تلبث سوى بضعة أشهر. قص عليه من المبتدأ حين تركه حتى رجع في ذهِ اللحظة. تعجب الملك وقرر أن تُكتب الحكاية بماء الذهب وتُوضع في كتبخانة القصر.

آه، وكالعادة، تبنى حكاية على حكاية أقدم. دوائر لا تنتهي. تذكرني بحي بن يقظان.

❖ ❖

مر أسبوعا الإجازة سريعا، ولم أتصل بمريم ولا هي اتصلت لكن لم ينقطع تفكيري فيها. ولأجل غرام حضرت محاضرة عن تطورات مفهوم الشرق الأوسط الجديد. لم أكن متحمسا على الإطلاق. أداعبها بقولي إن اهتمامها بالسياسة نوع من النشاط الزائد لهرموناتها، فتتهمني ضاحكة بالتعالي علي جنس النساء ثم تسخر مني وتبرم شاربا متخيلا وتقول:

- هع. أنا بمائة رجل يا "مان".

ثم تقفز وتتعلق بي وتحتضنني وتقول إنها ليس لديها كل المخطوطات التي أعيش فيها. فأجيبها:

- لكني أكره أن أعيش في الماضي، بل أستطيع أن أقول إني أكثر متابعة منك للأحداث، لكنها لا تقلب مزاجي وكياني ولا تؤثر في مثلما تؤثر فيك.

كنت انفعل كثيرا أيام الكلية وبعدها بقليل في نقاش الأمور السياسية وأحوال فلسطين ومصر والعالم. ثم ارتفع ضغطي فجأة بشكل أنذر بالخطر. فقررت أن الحياة لا تستحق أن يرتفع ضغطي لها طالما لست أنا من يضع

القوانين. وارتفع شعاري: كلّ يستأهل ما يحدث له. فالعرب يستأهلون ما يفعله فيهم الصهاينة والصهاينة يستأهلون ما يحدث لهم نتيجة لأفعالهم وأمريكا وأوروبا يستأهلون ما يحيونه الآن من إرهاب لما فعلوه في عصور الإمبريالية وعصر القوة الواحدة العظمى. والجماعات المتطرفة تستأهل غباءها وهكذا... حتى أنا استأهل تماما ما يحدث لي. فأصابتني طمأنينة غامضة، وساخرة كربات الانتقام في الأساطير اليونانية.

تضع غرام يدها على كرشي البادئ في الظهور وتربت عليه قائلة:

– أنا لم أصل لأكون بوذا مثلك.

أبتسم وأنظر لنفسي في المرأة فأرى بوذا حزيناً ينظر إلي.

❖

عادت غرام لأسبانيا. قررت ألا أتصل بمريم مرة أخرى، وقاومت إحساسي المزعج بأني مسئول عنها بشكل ما. لكن بعد يومين من سفر غرام اتصل بي صديقي يعاتبني على القاسية التي أرسلتها إليه.

- المجنونة، كادت أن تصفعني عندما حاولت أن أداعبها.

قلت مقهقها وأنا أداري ارتياحي:

- أنت لا تتغير أبدا. أتظن كلهن سواء؟ لقد فسدت خبرتك النسائية. شبتَ يا صديقي.

كنت أعرف أني أكذب كليا، نعم! ففعلا بها شيء يوحي بالتواطؤ، خاصة خطواتها المتبخترة المائعة الرائعة.

- هل مازالت تعمل عندك؟ أم أنك طردتها.

- لا طبعا. احتراما لك. وللحق لها هي أيضا. هي مجدة ومجتهدة. وأعتقد أنها طموح أيضا رغم سذاجتها.

- شكرا لصبرك. لكن بالله عليك راع البنت، إنها ...

ثم لم أعرف كيف أكمل جملتي، وجالت في مخيلتي صورتها وهي عارية، رائعة في وميض سمارها الفتان، واستعدت في لحظة توتري معها، فصمت. قال:

- هل يوجد شيء لا أعرفه؟ هل أنت متعلق بها؟

ثم أضاف ضاحكا:

- أظن أن غرام مازالت بالخارج للدكتوراه.

- لا تجعل خيالك يجمح بك. لا أنكر أن لها جوا يعجبني، لكن أنت تعرف أني لا أميل للسمراوات...

صمتَ ثانية وكأنه يقول لي: مع من تعبث؟ وعلى من تتلاعب؟ فليكن. لكنه قال:

- على العموم شكرا لك عليها، فهي فعلا صبورة، ومطيعة في العمل فقط...

ثم أكمل ضاحكا:

- للأسف.

انتهت المكالمة وازدادت حيرتي رغم شعوري بالارتياح. الآن أُرْتج علىّ الأمر تماما واستبهمت علاقتي بها. كان مجرد الحديث عنها يقوض مناعتي التي اكتسبتها من فترة الغياب. طلبتها على الهاتف. وما أن سرى صوتها في كياني حتى انقلب حالي تماما، وكأني أكرهها من شدة وجدي بها. عاتبتها على عدم اتصالها بي الفترة السابقة، وتصورت أنها ستبرر هذا بمعرفتها بوجود غرام وأنها لم ترد أن تسبب لي أي إحراج. إلا أنها قالت ببساطة إنها قد انشغلت تماما في عملها الجديد، لكنها منشرحة لهذا. أيضا تصورت أنها ستشتكي منه لمعاكستها، غير إنها لم تذكر شيئا من هذا على الإطلاق. كل ما قالته أنها تفتقد القراءة والكتب التي تستعيرها مني. اتفقت معها على أني سوف أمر عليها ومعي بعض الكتب التي أتصور أنها ستعجبها. وفعلا

مررت عليها ولكنها كانت مشغولة فتركتها ودخلت لصديقي ثم رحلت سريعا والغضب يملؤني منها ومني وربما من غرام أيضا.

❖

مرت السنون وسلامان ينمو ويزداد بهاء وروعة حتى يفع غلاما لم تر العين له مثلا، فمن يراه لأول مرة يشهق منبهرا لأنه يكاد يشع نورا عجيبا صباح مساء، له سلطان على من حوله، حتى لقد أخذ بلب كل من في القصر. وقد التحق بالدراسة مع أولاد عمه الملك وأولاد الأمراء من العائلة. كاد اسم سلامان أن ينسى لأن المعلم عندما رآه ناداه باسم يوسف تشبها بالنبي الجميل، وبعدئذ ناداه كل الأولاد معه بيوسف، وكلما عبر في مكان كانوا ينادون ويصفقون بالأكفِ مع إيقاع الكلمات: واين زليخة يا يوسف؟ واين زليخة يا يوسف؟ ولم يكن سلامان يعرف من هي زليخة التي كانوا يسألون عنها ويتصايحون كلما رأوه. وعندما بدأ في دراسة التنزيل المجيد عرف، لكن أولاد عمه نصحوه بقراءة أشعار الفرس عن قصة يوسف وزليخة فقرأ الفردوسي لكنه لم يفهم لم ينادونه بيوسف؟ أ لأنه جميل؟ وما في ذلك؟ شكوا أنه متبلد الشعور، بارد الحس، فهل كان فعلا، أعزك الله؟ فأنا لا أعرف فالله وحده علام الغيوب وما تنطوي عليه الأفئدة. لكنه كان دائم الحيرة والسؤال، إذ كان يشعر أنهم لا يرونه، إن تكلم معهم أو لعب، إن تفقه أو لها، رغم جماله الذي عرف الآن أنه يزداد يوما بعد يوم، أوعز إليه إحساسه المبهم هذا بيتمه، لكنه لم ينتبذ عنهم فهو لم يكن ليستطيع حتى وإن أراد لأن بهاءه كان يلقي بالطمأنينة في قلوب من يرونه فلا عجب إن بادلهم محبة بمحبة، لكن الهوى له شأن آخر حتى لقد قال قائل:

هَيهاتَ لا أَبتَغي مِنكُم هَوىً بِهَوى حَسبي أَكونُ مُحِبّاً غَيرَ مَحبوبِ

وهذا ما سوف تسمعونه فيما بعد من حال العربيد في الهوى. لنا رجعٌ إلى الخاقان ومملكته فقد كان للملك جهانتاب صَبيّان وفتاة كلهم يكبرون يوسف في السن، فتعلق بهم وتعلقوا به، وأحسن تأدبهم جميعا،

ويفع الصبيان فكانا فارسين همامين ذوا دين وأخلاق وأدب. الأكبر اسمه تاش تيمور والأصغر أرسلان والبنت اسمها شيرين. ومرت الأيام والعيشة في رغد وسرور بتحقيق الآمال، ولكن لا يُؤمن للدنيا الدنية أبدا عاقل، فعندما ظنوا جميعا أن الدنيا قد خضعت لهم، أتاهم اليقين. وما دربتْ الناسُ إلا وحال الدنيا قد تغير بإغارة الأعداء عليهم.

فكما قال الشاعر:

لَعَمرُكَ ما الدُنيا بِدارِ إِقامَةٍ وَلا الحَيُّ في حالِ السَلامَةِ آمِنُ

ووصف آخر للمغتر بها والمطمئن إليها:

عَجَباً مِن مُطمَئِنٍّ آمنٍ أَوطَنَ الدُنيا وَلَيسَت بِوَطَن

فنادى منادي الحرب إذ أغار على البلاد أهل يأجوج ومأجوج وحمى الوطيس وخرج الخاقان على رأس جيشه ومعه أخوه الوزير وقائد الجيش يدافعون عن بلدهم ومُلكهم. اشتعلت الحرب واشتبكت الخمائس بضراوة. دافع الملك جهانتاب عن بلده وانتصر في الحرب وانسحبت جيوش الأعداء، لكن الملك توفى بعدئذ إثر جرح غائر، فبكت عليه المملكة كلها وغلب عليها الحزن وأعلن الحداد أربعين يوما لفقد الخاقان العظيم وأظلمت البلادُ فكأنما:

عمَّ الظلامُ صروحَها مُذ وشحت ثوبَ الحدادِ وكان أسودَ أسحما

وبويع الابن الأكبر تاش تيمور خاقانا للبلاد خلفا لوالده، وكان تاش تيمور قد أتم عامه الواحد والعشرين آنذاك. وكان فارسا، قوي الشكيمة متضلعا في الدين، مثله المفضل: لا تأتسِ بمن ليس لك بأسوة. ويقول متفاخرا أنا أتأسى بالصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم. وكان يتخفى مثل عمر بن الخطاب ليتفقد أحوال الناس فسمع مرة امرأة تقول وهي تتنهد وتبث اللوعة لصاحبات لها: ماذا عساي أن أقول له وهو لا يأبه ولا يهتم ولو مر بي ما رآني. آهٍ لو أراه الآن! فقالت لها واحدة منهن ضاحكة: كنت ستتوسلين إليه وتتوددين حتى رمقك الأخير. فردت بأسى: لا بل سأهجم

عليه مقبلة ثغره البديع. فأكملت أخرى بخلاعة ومجون: وتقدين قميصه من قبل ومن دبر.

فأنشدت تقول:

يا من بيوسف سموه فتاه على أهل الصبابة واستعلى على البشر

فأكملت أخرى مقهقهة:

ما فيك من يوسف المشهور من صفة سوى القميص الذي قد قُد من دبر

فقالت المفتونة: كذبتِ وما رأيته، بل هو يوسف وقد كمل.

تركهم تاش تيمور وأكمل سعيه متعسسا وملتحفا بغلالة الليل حتى لا يعرف، وقرب حدائق المدينة وجد امرأة تجلس أمام دارها مشعلة نارا تستدفئ بها، ثم أنشدت:

هل مِن سَبِيلٍ إلى خَمْرٍ فأَشْرَبَها أَمْ هل سَبيلٌ إلى يوسف ذي التاجِ

إلى فَتىً ماجِدِ الأَعْراقِ مُقْتَبَل تُضِيءُ غُرَّتُهُ في الحالِكِ الدَّاجِي

نِعْمَ الفَتى في ظَلامِ اللَّيلِ نُصْرَتُهُ لِبائِسٍ أَو لِمسْكِينٍ ومُحْتاجِ

لم يتعجب الملك الشاب تاش تيمور مما سمعه، لكنه أنكره فبات يفكر في أمر ابن عمه هذا الذي يفتن كل من يراه. وزاد الأمر سوءا عندما بدأت الأقاويل عن يوسف وعما يفعله وتهتكه مع النساء والغضب الذي بات يتصاعد من أفواه الرجال وهم يتكلمون عن تدله نسائهم به بل وبعض شيوخهم أيضا.

وأصبح تاش تيمور يفاجأ يوميا بخبر عن يوسف به حب صريح أو تلميح واضح، ورغم رجاحة عقله وحكمته التي ورثها عن والده إلا أنه كان ما يزال شابا تمتلكه المشاعر. وكادت المملكة أن تفور بأحاديث يوسف، إلى أن استمع يوما إلى رسول الخليفة يقول وهو لاهٍ عما حوله عندما رأى يوسف:

مِدح المُلوكِ فِرىً وَيوسفُ يوسِفٌ ما مَدحُهُ الوافي حَديثاً يفترى

فلم يجد بدا من أن يستشير عمه الوزير آقطاي في أمر ابنه. فقال عمه له: يا مليكي، فديتك وحماك الله. بالله لا أظن في سلامان سوى صبي، أبيض السريرة، بعيد عن المكيدة، ولا ملامة لأن الله قد حباه بصفاء سماوي ندر أن يوجد، ولا أظن المتكلمين عنه سوى متقولين. فأعماله صالحة، وأفعاله تحت أعيننا. وهو ابن عمك، ودرع لك كأخيك رسلان. ولا تنس أبدا أن العدو لا يرفع عينه عنا، ولا ينتظر سوى إشارة ليبادرنا بالهجوم، وإن كنا قد كسبنا معركة فالحروب لا تنتهي. فبالله عليك فكر فيما أنت صانع، وفي القرار الذي أنت متخذه. فقال له: يا عماه، ما أسوي شيئا سوى أن أخلع عنه ما يفتن الخلق. قام وأمر الحاجب أن يستدعي ابن عمه يوسف وعندما حضر قال له: أصبحتَ فتنة أخاف على مملكتي منها والله لنأخذن من شَعرِك. فسأله يوسف لم؟ فقال يتمثل بك فلا نأمنك بعد اليوم. فرد يوسف متألما: طاعة يا بن العم! بالله ترفق. لكن الملك ما تراجع، فقص غرته، فصار وجهه أنور من البدر، فأمر بقص كل شعره فبدا أضوأ من الشمس والقمر معا. فاحتار تاش تيمور في أمره. فقال له تعمم وأمر بعمامة فاعتم بها يوسف وخرج من عند الملك حزينا متسائلا عما آل أمره عند أهله وما يخبئه له القدر. تفكر في سكوت أبيه ورضاه بالعدوان عليه دون سبب. إنه يعلم أن أباه يحب الخاقان ويعتبر نفسه أبا لكل أبناء عمه، لكن ألم يكن في استطاعته أن يُراجعه في الأمر؟ مشى يوسف في الأسواق والعمامة على رأسه تزيده جلالا على جماله، وافتتن الناس بعينيه وأحس أنه مُتابَع في كل خطوة فرجع إلى القصر ودخل على أبناء عمه أرسلان وأخته شيرين، يبث لهما شكواه من قسوة أخيهما الخاقان. هونا عليه الأمر وتمازحا معه، حتى رجعت الابتسامة إلى محياه الوضيء، واستعاد مرحه. فاستأذن منهما وخرج ليروح عن نفسه في الصيد. وما أن خرج حتى زفرت الأميرة زفرات حارة، لاحظها أخوها أرسلان، وكان روحه في أخته الأميرة فسألها ما بها؟ فصمتت. فقال: أراك تحبين ابن العم. وكانت الأميرة شيرين أخت الملك، تهيم عشقا بابن عمها، لكنها كانت تكتم هواها لأنها كانت تدرك تماما أن يوسف الذي يصغرها بعام واحد لا يحبها مثلما تحبه بل مثلما

يحب الأخ أخته. احتضن أرسلان أخته وقال لها: تعذبين نفسك يا أختاه، فما أظن أنه يهواك، بل أظن أن الله قد أبدعه لسبب نجهله جميعا. فحذار حذار على قلبك. كانت الأميرة شيرين تعرف كل هذا لكنها لم تتمالك نفسها فقالت:

أَتَعذُلُني في يوسُفٍ وَهوَ مَن تَرى وَيوسُفُ أَبلاني وَيوسُفُ يوسُفُ

فأجابها وصوته يرتعش حبا لها وشفقة عليها:

والله يا روح الروح

أنتِ أُختي وَأنتِ ذُخري الَّتي لَي سَت مِنَ الناسِ غَيرَ ما مُختارَه

وقلبي ينفطر إن يراك كسيفة الفؤاد، فتجلدي واصبري على ما تبتلينا به الأقدار. وما إن أتم كلامه حتى دخل عليهما أخوهما الخاقان تاش تيمور، فوجدهما في تلك الحال، فتعجب، ثم قال متداركا: سألت عن يوسف فقيل لي أنه عندكما. فقال أرسلان: قد كان لكنه رحل للصيد منذ قليل. فتأمل الخاقان أخته الأميرة شيرين ثم قال: أعلمتما أمر يوسف. فقال أرسلان: قد رأيناه متعمما، قد قص لنا خبره معك. أما قال لكما أن الناس باتت تتمثل به وتشعر فيه فتتلهى؟ وكانت الأميرة شيرين تخاف أن يتخذ أخوها الخاقان أمرا تكرهه ويبعد عنها يوسف، فابتسمت لأخيها وقالت بثقة: بالله عليك يا أخي! لا تجعل أذنك بوقا لأفواه الناس فتندم، وأنت أعلم منى بأخلاق ابن عمنا الذي هو أخونا أيضا. والعلي القدير، ما رأيتُ أبدا منه ما يسوءني. فردد: أأنت واثقة مما تقولين؟ فقالت له يا أخي:

هَذَا مَليكُ الحُسْنِ هَذَا يوسفٌ لو حُورُ عَدْنٍ راودتْه مَا غَدَرْ

هدأ بال الخاقان قليلا، وفي الليل كعادته ذهب ليعس متطلعا الأخبار، فهاله أن الناس ازدادت افتتانا حتى بعدما جز له الشَعر، بل تلقط أنباء من النساء عما يفعله يوسف، والحكايات التي تتناقلها الألسن، فيقولون أنهم يعرفون أن يوسف في بيت فلان عندما تنير الدار بنور عجيب ساحر، وأن النساء باتت تتتبع هذا الضوء من مكان لمكان لتتمكن من رؤية الجميل. واستمع إلى نفر من الناس يتداولون في الذهاب للحان لسماع ما

سوف يقوله مجنون يوسف الليلة وهموا للذهاب وهم يتضاحكون حتى وصلوا إليها ودلفوا فيها، فدخل في إثرهم وهو متنكر كعادته وجلس بين السمار. استمرت الجلبة في الحان حتى نودي على شيخ جليل الهيئة فأتى متمهلا فصمت الناس واستمعوا. وقف الشيخ في وسط الحان ثم أنشد وهو في حالة من الوجد والهيام:

أفي هوى يوسفٍ أُلامُ؟ بدرٌ تجلَّى له الظَلامُ
للغُصْنِ منه إذا تثَنَّى في مشيه اللِّينُ والقوام
يُديرُ من طرفهِ كؤوساً تفعل ما تفعلُ المُدام
بعارضيْهِ رياضُ حُسْنٍ للنَّور مِن زَهرِها ابتسام
من زغباتٍ منظَّمات في خدِّهِ زانَها النِّظام
والشعر نقصٌ لكلِّ خدٍّ والشعرُ في خدهِ تمام
لها وما إنْ لهوتُ عنهُ ونامَ عنِّي وما أنام
يدنُو فإن رمتَ منه نَيْلاً أعياكَ في نيله المرام
تملكُ مِنِّي القيادَ سلْمَى ولا كما يملك الغُلام
يا ليتَهُ ليلةً ضجيعي وللعدى آنُفٌ رغام
أضُمُّهُ بعد لثْم فيهِ إلى حشاً حشوُهُ الغرام
يُقنِعُني منه حين ينْأى في عيشتي زَوْرةٌ لمام
ليس على عاشقٍ تَمَنَّى زَوْرَةَ معشوقهِ أَثام
إنَّ الذي شفَّني هواهُ يَحلُّ في مثلهِ الحرام

ثم خر منصرعا، فالتف الناس حوله وحاولوا إفاقته بين مشفق وساخر. هب الخاقان من جلسته وقد انتوى أمرا لا رجعة فيه.

❖

بادرتني مريم:

- أمس قرأت لي أمي الفنجان.

فقلت ضاحكا ومستمتعا بالخفة التي تبدو في عينيها:

- ماذا قالت؟ هل أتت بسيرتي أو إشارة عني؟

صمتت للحظة كأنها تسترجع ما سمعته ثم قالت:

- بل قالت لي: انظري هذه أنتِ. وأرتني الفنجان. كان في قاعه قرصٌ بني وحيد ثم مساحة بيضاء واسعة ثم حلقة بعيدة من القهوة. وأضافت هذه أنت، دائما وحدك، في عالم آخر.

ثم انفجرت بضحكة تراجعت سريعاً وهي تقول:

- أهكذا أنا فعلا؟

ابتسمت ولم أعلق. لكني كنت أفكر في صحة هذا القول وتطابقه عليّ!

❖

رجع الخاقان إلى القصر وانتظر شروق الشمس ثم طلب عمه الوزير وابن عمه يوسف، فلما حضرا أمامه. بادرهما قائلا: يا ابن العم، قصصت لك شعرك فبزغ جبينك فاشتد افتتان الناس بك، ولا أريد خراب مملكتي بسببك، والذي نفسي بيده لا تكون بأرض أنا بها ولن يكون لنا مكان واحد نجتمع فيه بعد الآن. لقد أمرت بخلعك عنا لكثرة تقوّل الناس عنك، ونفيك من الأرض. ظل يوسف صامتا وتكلم الوزير أبوه قائلا: يا مولاي ويا ابن أخي، إنك تعلم علم اليقين أن يوسف لا ذنب له فيما حباه الله من هيئة، وأنت أدرى بأخلاقه التي تزينه، فلقد كنت له أخا لصيقا تعلم عنه حتى مالا

يعلمه أبوه. فتروَ ّ في حكمك، ولله الأمر من قبل ومن بعد. لكن الملك صمم على رأيه وأمر له بما يصلحه للمسير. فقال له يوسف: تظلمني يا بن العم! وما عهدتك ظالما. إن تر أن تنفيني ولا ذنب لي فإن هذا يرجع لك، لكنك خلعتني وكأنك تتبرأ من آثامٍ أنت تعلم أني ما اقترفتها. إني راحل فترفق بنفسك وبأهلك. ثم استأذن أباه وودعه. اهتم الملك لفراق يوسف لكنه لم يراجع نفسه وأمر بإعلام الناس بخلع يوسف عن أسرته وأنهم غير مسئولين عن أعماله وأنه قد نفيّ خارج البلاد. وأطلق الناس عليه لفظ الخليع وأنه لم يعد يسمى سلامان أو يوسف. انتقل الخبر كالنار في الهشيم، وحزن كثيرون، وكاد أن يحدث مالا يحمد عقباه، لكن الجند تداركت الأمر، مما أكد للخاقان تاش تيمور صواب رأيه في نفي يوسف. أما يوسف فقد خرج ليسلم على أفراد عائلته الذين قد وصلهم الخبر وكانوا له غير مصدقين. وخرج هائما على حصانه مع المرافقين الذين أرسلهم الملك معه ولم يلتفت إلى الوراء حيث ترك البلد الذي يحب وظلوا يتنقلون من بلد إلى بلد حتى وصلوا لبلدة يقال لها عشق آباد، فقرر أن يستقر بها ولا يكمل منفاه إلى البصرة حيث كان مخططا من قبل الخاقان.

مر عامان ويوسف يتأسى بالصلاة والصوم على محنته، ويقوم الليل كله للدعاء للرب الكريم أن يفك كربه وينهي غربته ويُعلي جبهته. طال الوقت في هذه البلد حتى قتله الحنين إلى أبيه وأهله وكان يرسل إليهم مع البريد يسألهم عن أخبارهم وأخبار العدو الذي يناوشهم دائما على الحدود ويطمئن أباه عن حاله، ويرسل لابن عمه الخاقان كاتبا يلومه من يأسه ويسترجوه:

لعمري لئن سيرتني وحرمتني ولم آت إثماً إن ذا لحرام

ومالي ذنبٌ غير ظنٍ ظننته وبعض تصاديق الظنون إثام

لكن مرسال البريد لم يأت بجديد، بل كل مرة بكلمة واحدة من الخاقان: أقسمتُ ولا أحنثُ. ثم لم تلبث أن تلاحقت أخبار الكوارث، قد استعاد العدو همته وظهرت جيوشه في الأفق كأنها الجراد فاكتسحت البلاد وقُتل الخاقان الأكبر والوزير. وأُسرت كل عائلته وتنتظر الموت. لم يطق

يوسف صبرا وامتطى جواده وطار إلى المملكة وهو منفطر القلب على أبيه وابن عمه الملك. وكان يتمنى أن يستطيع أن يستفدي عائلته بأي شكل من أصحاب يأجوج ومأجوج، ويستأمنهم لنفسه ولأهله، وكان يشعر أنه منفذ لما انتواه وكأن الله يسانده، لكنه لما وصل إلى المملكة لم ير سوى الخراب وهياكل خاوِيَة عُروشُها عَلى أفنيةٍ مهتجرة. وسأل عن أهله فوجدهم جميعهم قد هلكوا فيمن هلك. انذهل عما حوله وطار عقله وزاغت روحه. فصار حاله كما قال الشاعر

أيا ربِّ إن اللُبَّ طاشَ بما جرى به قلمُ الأَقدارِ والقلبُ يرجُفُ

هام على وجهه في أطلال مدينته وقوبل بأناس قد أدركهم ضر الحرب وخرابها يقولون له هذا والله ذنبك يا خليع! بالله لو كنت هنا لعفا عنا جميعا يأجوج ومأجوج إكراما لك، ظُلمتَ وخُلعتَ وطُردتَ ونُفيتَ بلا جريرة. كما قابل أحرين كادوا يفتكون به وهم يقولون هذا ذنبك يا خليع! جرت علينا الأهوال مما اقترفت من مآتم. حاول الخاقان أن يدرأ مساوئك بخلعك والتبرؤ منك لكن هيهات هيهات، قد آذيتنا بخطب نحس. التف حوله الناس، وتصايح الصبية مما سمعوه من الكبار: الخليع الخليع! لكنه كان سقيما مبلبل العقل والقلب كاسف الوجه والحال. مرت أيام لا نهاية لها وكأن الله قد سلط زبانية جهنم على مراتع صباه، فما عاد يرى سوى الأطلال فكان يناجيها مثل العرب البائدة في الفيافي وأقسم أن يرحل ولا يعود أبدا. رجع إلى عشق آباد وعاقر الخمر ونادمها حتى أصبحت صديقه الصدوق في بلد منفاه، لكنها لم تنقذه من ألمه فلم يطق صبرا بها وقرر هجرها هي الأخرى وقد كانت ثقيلة عليه وابن عمه الملك حيا، فازدادت ثقلا وكل عائلته قد رحلت وأصبح خليعا حقا في هذه الدنيا ولا رجاء له في عفو أو رجوع وانطبقت عليه الصفة وازدادت باليتم الكلي.

وتأمل حاله فنعى نفسه وبكي منشدا:

قَد دَهَتني مِن الزَمانِ خُطوبٌ ضاقَ عَن حَملِها جَميلُ اِصطِباري

هام على وجهه فمر على كثير من بلاد المسلمين، من فرغانة لغانة، ومن مصر الصعيد لأندلس مجريط. وفي كل مكان كان يقيم لفترة ثم ما يلبث أن ينتابه الملل ويقتله الغم. فيقول يائسا:

كُلُّ البِلادِ ذَميمٌ لا مُقامَ بِهِ وَإِن حَلَلتَ دِيارَ الوَبلِ وَالرَهَمِ
إِنَّ الحِجازَ عَنِ الخَيراتِ مُحتَجِزٌ وَما تِهامَةُ إِلّا مَعدِنُ التُهَمِ
وَالشَأمُ شُؤمٌ وَلَيسَ اليُمنُ في يَمَنٍ وَيَثرِبُ الآنَ تَثريبٌ عَلى الفَهِمِ

خلال عشرين عاما لم يستقر أبدا في مكان، فقد خلالها إيمانه بكل شيء وتملكه المجون. عاش وتكنى بخليع عشق آباد، ثم اشتهر بعربيد عشق آباد حيث صادق الشطار والزنادقة وسامر أصحاب كؤوس بنت الكرمة. وأصبحت القصص التي تروى عنه حقيقة لا ينكرها هو ولا يكتمها الآخرون. فكان صيته يسبقه فتتحاشاه الحرائر خشية الوقوع في براثن جماله وزيغه، ويتصدى له الرجال قدر استطاعتهم، منهم بالكلمة الطيبة ومنهم بالزجر والنهي. تناقل الناس النوادر والأحداث التي اشترك فيها، فكانت درر الحكايات.

❖

- ألا تحن للأولاد؟

- لم نخطط لشيء، لكن من المجنون الذي يفكر في الإتيان بأطفال في هذا العالم المرعب! وأظن أن غرام لها نفس وجهة النظر. لذلك لم نسعَ وتركنا كل شيء للصدف، بل نستطيع أن نقول أننا أهملنا الأمر، ولم نفكر فيه كثيرا. ويبدو أن هذا أحسن الحلول لنا كلنا.

- كلكم؟

- أقصد غرام وأنا والذي كان من الممكن أن يأتي من عالم الغيب.

❖

صباح ذلك اليوم تواعدنا على اللقاء غير أننا أسرعنا إلى المنزل لنحتمي من الهواء العاصف والبرد القارس الذي فاجأنا. من النادر أن تنزل درجة الحرارة إلى أربعة مئوية. دخلنا المنزل وأسرعت هي إلي المطبخ لعمل قهوة لي وشاي لها. وضعت أسطوانة لنسمعها ونحن نرتشف الشاي والقهوة. ظللنا صامتين لفترة وكل منفصل في عالمه تماما. ثم بعد قليل قامت وتجولت في الشقة. أشعر بألم من يربي نمرا قاسيا ينتظر افتراسه في أية لحظة. بَيْد أني لاحظت أن حركتها فيها خذلان وبطء أكثر من المعتاد:

- أتشعرين بشيء؟ مالك؟

رجعت وجلست على المقعد أمامي وقالت:

- نعم عندك حق، فأنا أشعر بالدوار وقليل من الغثيان. ولقد ذهبت إلى الطبيب نهارا وطلب عمل تحليل بول ودم. لكني أخاف. ربما هو الإرهاق.

- الم تأكلي شيئا اليوم؟

- لم آكل على الإطلاق.

- لماذا لم تقولي لي حتى نأتي بأي شيء نأكله.

أعددت لها ثلاث ساندويشات صغيرة.

- لكن يجب أن نطمئن عليك، يجب أن تقومي بعمل التحليل المطلوب.

- لا.

- لا تكوني عنيدة.

قمت وأحضرت لها زجاجة وطلبت منها أن تذهب إلى الحمام لكي أذهب أنا بالبول للمعمل الآن إذا كانت هي لا تريد، ثم نعمل تحليل الدم فيما بعد. كنت أظن أنها لن تطاوعني. لكن لدهشتي دخلت وأخذت

الزجاجة معها. وخرجت بعد قليل مكسوفة وهي تقول إن البول في الزجاجة على الغسالة في الحمام. لا تقلقي سوف أذهب أنا به. وفعلا دخلت الحمام ووجدت الزجاجة، لون البول عنبري لامع. أعرف من غرام عدة أشياء عن الطب كحال كل من يتزوج أطباء. انتابتني رعشة وأنا آخذ الزجاجة بيدي. كانت ساخنة جدا. هذه السخونة تأتي من داخلها. أنا أنوف بطبعي وأتعجب من غرام عندما تحكي لي عن العمليات الجراحية. هذه الحرارة التي تتسرب من الزجاجة سريعا، أقتنصها وكأني أحول دون أن تتسرب أي ذرة إلى البرودة التي تحتويني.

ظهرت نتيجة التحليل ولم يكن به شيئا غير عادي. تكاسلت عن تحليل الدم لكني صممت ورافقتها إلى المعمل مؤازرا. وكنت مستمتعا باعتمادها علىّ. لم يظهر التحليل سوى فقر دم بسيط، ونصح الطبيب بكبسولات حديد ونظام غذائي.

ورغم تشخيص الطبيب إلا أني هاتفت غرام وسألتها عن هذه النتيجة وقرأت لها قدر استطاعتي نتائج التحليل فأكدت على كلام الطبيب. لكنها سألتني:

- من تخص هذه التحاليل؟

- إحدى طالباتي.

فأكملت بضحكة بعيدة:

- ها. وما أخبارك معها؟

- ماذا تقصدين؟

فقالت بصوت محايد:

- أنت تعرف.

- أعرف ماذا؟

بدا الضيق على صوتي، فقالت مكملة:

- أنت تعرف كم أحبك.

انتهت المكالمة وبقيت أفكر لماذا كان صوتي ممتلئا ضيقا. عجيبة زوجتي التي تحب رقص تحية كاريوكا وصوت الشيخ رفعت وتكره موسيقى بروكوفييف ولوحات إيجون شيله. فهي على الرغم من جنونها وجموحها وطابعها الصبياني تهرع إلى قبر والدها في مدافن الأسرة في العامود عندما يضيق بها الحال وتقرأ له الفاتحة وتبكي بدموع صامتة ثم تركب سيارتها وتعود وقد زايلها الضيق. أنا في أوقات الضيق أظل أحملق في وجهي في المرآة وأتصور أن العالم لم يعد له وجود. أف لهذه العلاقة التي تعفنني من الداخل.

❖

خلال عشرين عاما لم يستقر أبدا في مكان، فقد خلالها إيمانه بكل شيء وتملكه المجون. ووجد أن حال الناس كما يقول الشاعر:

عاشوا كَما عاشَ آباءٌ لَهُم سَلَفوا وَأَورَثوا الدِينَ تَقليداً كَما وَجَدوا

فَما يُراعونَ ما قالوا وَما سَمِعوا وَلا يُبالونَ مِن غِيٍّ لِمَن سَجَدوا

تناقل الناس النوادر والأحداث التي اشترك فيها، فكانت درر الحكايات. فمثلا لما دخل مدينة دمشق الشام، حرسها الله، استقبله مجموعة من الزنادقة وأفردوا له مكانا عاليا فيما بينهم، يتنادرون ويتسامرون ويستمتعون بما تجود به قريحته وخفة روحه الماجنة. ذات يوم في فيحائها دخل عليهم رجل غيور مما سمع عن العربيد من مجون وتهتك وتشبب بحرائر المدينة، فأخذ يزجر العربيد وأغلظ له القول، فمال أحد المجان وهمس في إذن العربيد أن الناس تقول أن هذا الرجل زنيم، وأمه لا تعرف له أبا. فبادره العربيد صائحا: مهلا يا رجل! بحق من أسماك ابن أبي عبد الله، نحن في ضلال، أهكذا تدعي؟ ثم أنشد قائلا:

إِنَّما نَحنُ في ضَلالٍ وَتَعلي لٍ فَإِن كُنتَ ذا يَقينٍ فَهاتِه

وَلحُبِّ الصَحيحِ آثَرَتِ الرو مُ اِنتِسابَ الفَتى إِلى أُمَّهاتِه

فانصرف الرجل كاظما غيظه بين ضحكات الزنادقة.

وفي مدينة الرسول يثرب تتطع رجل في الكلام محاولا أن يغصبه على صلاة في الحرم فما كان منه أن وقف في السوق مناديا:

دينٌ وَكُفرٌ وَأَنباءٌ تُقَصُّ وَفُر قانٌ يَنُصُّ وَتَوراةٌ وَإِنجيلُ

في كُلِّ جيلٍ أَباطيلٌ يُدانُ بِها فَهَل تَقَرَّدَ يَوماً بِالهُدى جيلُ

فتكاثر حوله الناس وكادوا أن يفتكوا به لولا أن حماه أصحابه.

وفي مصر، بعد أن حضر صلاة الفجر في الجامع الأزهر، ظل يقرأ القرآن ويرتله حتى أذن لصلاة الجمعة، فإذا به يتقدم إلى المنبر بمهابة ورفعة ثم اعتلاه فانتبه الناس لهذا الجميل الذي كان يرتل القرآن لفترة طالت فإذا به يقول:

أَرواحُنا مَعَنا وَلَيسَ لَنا بِها عِلمٌ فَكَيفَ إِذا حَوَتها الأَقبُرُ

كَذِبٌ يُقالُ عَلى المَنابِرِ دائِماً أَفَلا يَميدُ لِما يُقالُ المِنبَرُ

ثم نزل وخرج من الأزهر بين معجب ومنزعج.

ويحكى أنه عندما دخل بغداد مدينة السلام وهي معروفة بكثرة ما فيها من خلعاء مجان، الذين أسرفوا في قول الشعر السافر في الخمر والجواري والغلمان. فاجتمعوا حوله وتنادروا، فإذا بمرور كوكب جارية أم الخليفة راكبة في جمع من الخدم تتصرف في حوائج الخلافة، ومنها أن تمر مع عبد الله بن حاتم النجدي على النخاس لشراء رقيق للعتق، وقد كانت كوكب كما يقول الشاعر في وصفها:

كما اشْتَهَتْ خُلِقَتْ حتى إذا كملتْ في قالبِ الحسنِ لا طولٌ ولا قِصَرُ

فالبدرُ طلعتها والغصن قامتها والمسك نكهتها ما مثلها بشرُ

كأنها أُفْرِغَتْ من ماءِ لؤلؤةٍ في كل جارحةٍ من حسنِها قمرُ

فهب من مكانه العربيد واتجه إليها واقترب حتى لمحته، فقال: جعلني الله فداك يا صاحبة الفضل، غريب عاداه الدهر، وعزيز قوم ذل، فإن رأيتِ أعزك الله شرائي وعتقي، تكونين مأجورة وثوابك عند الغني المنعم. فأقبلتْ على عبد الله وقالت: إني أرى محيا جميلا، وعزا غابرا، لسانا صحيحا وفؤادا بينا، فاشتره واعتقه. فهم عبد الله في الاعتراض، فأشارت له أن يصمت وينفذ أمرها. فقال العربيد: أتأذنين لي أصلحك الله في تقبيل يدك المحسنة؟ فسمحت له، فأقترب ولثم يدها وانصرف. فضحك عبد الله وسألها أوتدرين من هذا؟ فقالت لا. فقال هذا عربيد عشق آباد الشهير وقد وصل بغداد. وإنما احتال عليك حتى يبوس يدك. فغالبها الغيظ رغم إعجابها به، وأقسمت أن تنتقم منه إن رأته بعدئذ. سمع العربيد بهذا القسم، فتحايل عليه. وكانت كوكب قد راقت له وأعجبته، فمكث أسبوع ثم انتظر خروجها مرة أخرى لقضاء أمر من أمور أم الخليفة، فلما رآها مضى فلبس كالرهبان، ودفع ثيابه لصاحب له، ثم سأل عن رجل ذي قيمة من أهل السوق، فأرشدوه إلى شيخ صالح قمّاش، فذهب إليه وحياه وقال له: إني قد رغبت في الإسلام على يدي هذه المرأة. فقام الشيخ معه وصاحبهما جمع من أهل السوق، فلما وصلوا إليها بادرها الشيخ قائلا: إن الله قد ساق لك أجرا، وثوابا علك تحوزينه، هذا راهب قد رغب في الإسلام على يديك. فقالت: هاتوه. فدنا منها وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. ثم قطع الزنار واقترب أكثر فقبل يدها وأطال ملامستها. فلما فعل ذلك رفعت البرنس فعرفته. فقالت: نَحُّوه! لعنه الله. فقالوا: لا تلعنيه فقد أسلم. فنظرت إليه، فابتسم لها، فقالت مدارية الأمر: إنما فعلت ذلك لأنه شكني بلحيته ذه. خذوه وألبسوه حله جديدة. فعرضوا عليه كسوة. فقال: لست في حاجة إلى هذه، وإنما أردت أن أشرف بولائها. ثم جلس فجعلوا يعلمونه الحمد وصلى معهم الفرض، وهو ينظر بين يديها وهي لا تقدر على حيلة. لكنها بعدما انتهوا من الصلاة كانت قد قررت أمرا، ردا منها على مشاكسته لها،

فأمرت العبيد باصطحابه معهم إلى قصر الخليفة، وقالت للجمع أنها تريد أن تشهد مولاتها على إسلامه. فمشى العربيد في ركابها، وهو غير قادر على الفكاك، ويمني نفسه في ذات الوقت بتهتك جديد. سار معهم حتى وصلوا إلى النهر فنزلوا في شبارة تتهادى على صفحة الماء حتى انحدروا إلى بستان لم يكن على الأرض أحسن منه وقد غرس فيه من كل نبات يسبح باسم الخالق المبدع الله سبحانه وتعالى، وكان في وسطه قبة على أعمدة رخام مصقول وفي وسطها بركة بمدرجات فيها مكين فضة عليه صور من الذهب والفضة يخرج الماء من أفواهها سبائك فضية تتلألأ، وأعينها من الياقوت الأحمر والأزرق وما على الأرض مثله. فصعدوا إليه وجلسوا في القبة. فأمرت بالشراب والطعام. فأتوا بأصناف عدة من الخبيز السميذ، والدَّرْمك والجرْمازج وغيرها، ومن الطبيخ النارْباخ والسكباج وغيرها، ومن الحلوى الفالوذج واللوْزَينَج وغيرها، ومن الفاكهة ما لذ وطاب. وبعدما أكلوا وشبعوا وغسلوا أيديهم، أمرت كوكب بالعُقار المُروق فصفوا الشراب بأنواعه، حيث فتحوا مخبئات الإيوان الموجود في القبة وكان في كل مخبأ عشرة مراكن في كل مركن أباريق ملآنة شرابا مسكرا وقد صار مثل الثلج. فشربوا وانتعشوا حتى قام العربيد وأنشد:

ألا سَقِّني يا صاحِ خمراً فإنّني بما أنزلَ الرحمنُ في الخمرِ عالمُ
وجُد لي بها صِرفاً لأَزدادَ مَأثماً ففي شُربها صِرفاً تتِمُّ المآثمُ
هي النّارُ إلاَّ أنّني نلتُ لذةً وقضَّيتُ أوطاري وإن لام لائمُ

فضحكت الجواري فعاودت كوكب ملأ كأسه. فأكمل مادحا الراح وهو ينشد:

لستُ أدري من رقةٍ في صفاها هي في كاسها أم الكاس فيها
ونديمٍ يقول لي فرّغ الكا سَ وفيها بقية أَشتهيها
حاش الله أن أُبَقّيَ في الرا حِ سلافاً وأنت ناولتَنيها

وقالت كوكب: بحق من يحج الحجيج إلى كعبته، أنت مصطل في نار جهنم.

فأكمل معاندا وقد تمكنت الخمر منه:

فَهَل قامَ مِن جَدَثٍ مَيِّتٌ فَيُخبِرَ عَن مَسمَعٍ أَو مَرى

نَزولُ كَما زالَ أَجدادُنا وَيَبقى الزَمانُ عَلى ما نَرى

نَهارٌ يُضيءُ وَلَيلٌ يَجيءُ وَنَجمٌ يَغورُ وَنَجمٌ يُرى

قالت كوكب: كف عما تقول، لا تبدل مجلس سرورنا. فالتفت إليها وقال: إذن لا تكتمل مجالس السرور دون عزف وشدو ورقص، فأمري لنا بالقيان. صفقت بيديها. فأتت من الجواري؛ الجنكية والدقيقة وصاحبة العود. ثم دخلت الزامرة والربابية والمنشدات والراقصات. بدأن في العزف وتهيأت الراقصات للرقص وقد كن كما يقول الشاعر:

فِيهِنَّ أَمْثالُ الظِّباءِ أَوَانِسٌ وَمِنَ الأَنِيسِ جَآذِرٌ وَظِباء

ورَوَاقصٌ هِيْفُ الْخُصُورِ كأَنَّما حَرَكاتُهُنَّ على الْغِناء غِناء

لَوْ أَنَّ مَوْطِئَهُنَّ مُقْلَةُ أَرْمَدٍ لَمْ يَشْكُ أَنَّ نِعالَهُنَّ حفاء

بدأت المغنية الأولي بصوت فيه لحنان فشدت:

ألا أيها العشاقُ باللهِ خبّروا إذا اشْتَدَّ عِشقٌ بالفتى كيف يصنعُ

ثم أمسكت الثانية بعودها وشدت:

يُداري هَواهُ ثمّ يَكْتمُ سرَّهُ ويَصْبِرُ في كلِ الأمورِ ويَخْضَعُ

فتنهدت الأولى وأتبعت:

وكيف يُداري والهوى قاتِلُ الفتى وفي كلِّ يومٍ قَلبُهُ يتقطعُ

لقد حاول الصبرَ الجميلَ ولم يَجِدْ لَهُ غيرَ قلبٍ في الصبابة يَجْزَعُ

فعاودت الثانية وأنشدت:

فإن لم يَجِدْ صَبْرا لِكِتْمانِ سِرِّهِ فليس له عندي سوي الموتِ انْفَعُ

فنهنهت الأولى وأكملت:

سَمِعْنا اطعْنا ثمَّ مُتنا فَبَلِغُوا سلامي على مَن كان للوصلِ يمنعُ

هَنِيئا لأرْبابِ النعيمِ نَعِيمُهُمْ وللعاشقِ المِسكينِ ما يَتجَرَّعُ

ثم شهقت وغشي عليها. فألتف حولها القيان والعبيد ثم استأذنوا في حملها للداخل. فسمحت لهم كوكب ثم فسرت الأمر للعربيد قائلة: إنها ولهى، وويل للمحبين إذا منعوا الوصل. فأطرق العربيد مفكرا ثم أنشد:

نوَبُ الزَمانِ كَثيرَةٌ وَأَشدُّها شَملٌ تَحَكمَ فيهِ يَومُ فِراقِ

يا قَلبُ لِم عَرَّضتَ نَفسَكَ لِلهَوى أَومارَأَيتَ مَصارِعَ العُشّاقِ؟

فأجابته كوكب: لا تدع هذا الحادث يفسد ليلتنا الجميلة، فهذا حال المحبين وقدرهم، هيا انزع عنك ثوب الهم. فظلا يشربان حتى تحكم فيها السكر فقاما إلى البركة ثم خلعا ثيابهما ونزلا وبقيا يسبحان ويتلاعبان فيتراشان بالماء الزلال ويتعانقان حتى قالت له كوكب: يوه يوه أما تستحي! ثم خرجا من البركة ولبسا ثيابهما وأمرت كوكب العبيد بتجهيز مكان له للبيات وقالت: سوف أقدمك غدا لسيدتي، أم أمير المؤمنين، فتشرف بلقائها. وقد كان، فأصبح العربيد من حاشية قصر أم الخليفة.

وكان أمير المؤمنين شابا في الخامسة والعشرين من عمره دمث الأخلاق شاعرا رقيق القلب، عَبقا لبقا، محبا للفلسفة و مغرما بالعلوم. فقرأ المجسطي لبطلميوس، وأيساغوجي لفرفوريوس وكتابي المغالطة والبرهان لأرسطو. فكان يؤم مجلسَه النحرير من كل عالِم، والنقرِيس من كل

فيلسوف، تجد فيه الفقيه الطَبن والطبيب النطاسي، وتجد كل شاعر مُفْلِق وكل فارس ثقف لقف. وكان محبوبا من كل رعيته لكرمه ورفعة أخلاقه فهو ما رد طالبا أبداً وما خرج من عنده سائل إلا مجبورا. ورغم حكمته ورشاده إلا أنه ترك أمور الحكم لأمه، فكانت هي صاحبة النهي والأمر، تعود إليها أمور السياسة ودسائسها، فكانت خير شخص لها لما تتمتع به من حنكة ودربة في الأمور. ولما علم أميرُ المؤمنين بوجود العربيد في قصره في ضيافة والدته حتى استدعاه لمجلسه. فأستأذن العربيد في الدخول فوجد الأميرَ شابا حسن الوجه مشْرِقه، مُرجل الشعر بَهيمه، كحيل العينين أحورهما، أزج الحواجب أسودهما، كأن رموشه مخالب النسور، وعليه طلاوة تعلوها حلاوة. وسبحانه تعالى مؤلف القلوب، وصدق رسول الله عندما قال: الحمد لله، الأرواح جنود مجندة، تتلاقى في الهواء، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف. فما لبث أن تغلغلت المحبة بينهما وصارا خلين، بما كان من تشابه روحيهما رغم ما عرف عن العربيد من مجون وما عرف عن الأمير من ورع. وصار العربيد درة مجالس الخليفة ونديمه. وذات مجلس كان ضيفهم فيه الفقيه الأشهر الذي اشتهر بالورع وبسعة الصدر وكمال المروءة فسأله أحد الموجودين: أفتِنَا في قَواتِلِ الأحدَاقِ ثم أكمل منشدا:

هَلْ عليها القِصَاصُ في القتلِ يوْماً أمْ حَلالٌ لَهَا دَمُ العُشّاقِ؟

فأجابه الشيخ الفقيه بحلمه المعروف:

عِندِي جَوَابُ مَسِائِلِ العُشّاقِ فَاسمَعْهُ مِنْ قَلِقِ الحَشَا مُشتاقِ

لمّا سألتَ عَنِ الهَوَى أهلَ الهَوَى أجرَيتَ دَمعاً لَمْ يَكُنْ بِالرّاقي

أخطأتَ في نَفسِ السؤالِ، وَإن تُصِبْ بكَ في الهَوَى شَفَقاً مِنَ الأشفاقِ

لَوْ أنّ مَعشُوقاً يُعَذِّبُ عَاشِقاً كَانَ المُعَذَّبُ أنْعَمَ العُشّاقِ

وحالما انفض المجلس واختلى الأمير بالعربيد كعادتهما لاحظ العربيد أن الأمير مهموم القلب، كاسف البال، حزين النفس، فتجرأ وقد راعه أمره

فسأله عما يهمه ويكربه ويسلمه لهذا الحزن ذي الحرقة. فتنهد الأمير قائلا: لقد انفطر قلبي بما قال فقيه العراق ابن هارون وشغل بالي بعذاب العشاق. ثم تنفس الصعداء وأكمل:

لوْ كانَ يدري مالكٌ ما الذي ألقى مِن الأحزَانِ والكَرْبِ.

وَمَا ألاقي مِن أليمِ الهَوَى عذّبَ أهْلَ النّارِ بالحُبِّ.

فتساءل العربيد: أو تهوى يا مولاي؟ فأطرق يائساً ثم رد: نعم. فقال العربيد: وما منعك عمن تحب؟ فقال: هي لا تحبني. فدهش العربيد وقال: وما منعك عن الاستمتاع بها وأنت من أنت؟ فأجابه الأمير مبتسما بحزن: أنا؟ من أنا؟ ما أنا إلا رجل ابتلاه الله بحب من لا يحبه، وأنت أعلم الناس بالحب وابتلائه. فمن منا يملك قلبه أو بقادر على قلب من يهوى؟ فصدق العربيد على كلامه. ثم قال: وهل لي أن أعرف من هي؟ فقال الأمير: بالله ما كنت لأبوح باسمها أبدا لأحد غيرك. هي الأميرة مها السَانجنية. صعق العربيد بسماع اسم الأميرة التي كان قلبه قد بدأ يخفق بحبها ولكنه لم يستطع أن ينسب بها أو يشعر فيها لمكانتها وقوة شخصيتها وارتضى منها بالبعد. وكان قد أحب أميره بحق وبصدق. فكأنه كان نواسيّ الشعور بينهما. فقال له العربيد: تجلد يا مولاي وكان الله في عونك. كانت الأميرة مها السَانجينة أميرة من بيت الخلافة، ولدت بإسكندرية مصر ولكنها نشأت وتربت في بيت الخلفاء في بغداد. لم يُعرف للحكام بنتاً مثلها، كانت أكثر أيام طهرها مشغولة بالصلاة، ودرس القرآن ولزوم المحراب، فإذا لم تصلِّ اشتغلت بلهوها وكانت شاعرة من الفوارس تركب الخيل وتقاتل وعليها الدرع والمخفر. كانت تخالط الشعراء وتساجلهم، من أجمل النساء وأظرفهن وأكملهن فضلا وعقلا وصيانة فقد كانت كاملة الحسن، راجحة العقل، مشهورة بالأدب والكرم. مرت الأيام والليالي فيزداد الأمير والعربيد حزنا وهما. ويكابر الأمير فلا يراه في هذه الحال سوى العربيد خله وتوأم روحه حتى كان ظهرا وهو راجع من صلاة الجمعة على فرسه وبجواره العربيد والوزراء والأمراء. إذا بهم يسمعون صوتاً من أحد البيوت يقول وقد ملأه الجوى:

يا مُوْقِدَ النَّارِ في قلبي وفي كَبِدي أَوقَدْتَ ما لَيْسَ يُطْفا آخِرَ الأَبَدِ
أَوقَدْتَ نارَ الهَوى بِالشَّوقِ فَاشْتَعَلَتْ مِنَ الجَوانِحِ لم تَخْمُدْ ولَم تَكَدِ
لَوْ مَرَّ لي نَفَسٌ بالنَّارِ أَحْرَقَها بِحَرِّهِ ولو أَنَّ النَّارَ مِنْ بَعَدِ

فإذا بالخليفة يقع من على فرسه مغشيا عليه فيُهرع إليه العربيد ومن معه. ويحملونه إلى مكان ظليل ويقوا بجواره حتى استعاد وعيه. وجد العربيد ممسكا بيده ويقول له منزعجا وهو في حال: مولاي؟ خلعت منا الفؤاد خوفا ووجلا. سلمك الله. بالله عليك. هون على نفسك. ثم ترفق لما رأى وهن الأمير وقد تغير محياه الجميل وفقد بهاءه. ظل أمير المؤمنين يفقد صحته حتى لم يعد يستطيع القيام وخمدت الحياة فيه وحزنت عليه الرعية ودعي له على المنابر بصدق وحب وليس بنفاق وكذب. دخل العربيد عليه فوجده مطروحا على الفراش بين يدي والدته، فسلم عليه قائلا: كيف حال الأمير الآن؟ فجاوبه الأمير بصوت واهن وشبه ابتسامة: حبُّ من تعلم أورثني ما ترى. فتألم العربيد وقال: تجلد يا مولاي، شفاك الله. وصدق من قال: حقيقة المحبة أن لا تزيد بالبر ولا تنقص بالجفاء. وبينما هما يتناجيان أعلن الحاجب عن مقدم الأميرة مها السنجينة. فتهلل وجه الأمير كأن فرات الحياة قد فاضت في عروقه. وهمس عند رؤيتها:

إِنْسِيَّةٌ لَوْ بَدَتْ لِلْشَّمْسِ ما طَلَعَتْ مِنْ بَعْدِ رُؤْيَتِها يَوْماً عَلى أَحَدِ
سَأَلْتُهَا الوَصْلَ قَالَتْ أَنْتَ تَعْرِفُنا مَنْ رَامَ مِنَّا وِصالاً مَاتَ بِالكَمَدِ
وَكَمْ قَتِيلٍ لَنَا في الحُبِّ مَاتَ جَوىً مِنَ الغَرامِ وَلَمْ يُبْدِئْ وَلَمْ يُعِدِ

أقبلت الأميرة ببهائها المعتاد وألقت السلام والتحية على الحاضرين. ثم اقتربت من فراش الأمير وقالت: عفا الله عن الأمير، سلامتك يا مولاي. كيف حالك الآن؟ فأنشدها:

قَالَتْ وَقَدْ فَتَكَتْ فِينا لَوَاحِظُها مَا إِنْ أَرى لِقَتِيلِ الحُبِّ مِنْ قَوَدِ
قَدْ خَلَّفَتْنِي طَرِيحاً وَهْيَ قَائِلَةٌ تَأَمَّلوا كَيْفَ فِعْلُ الظَّبْيِ بِالأَسَدِ

فقالت وقد أشرقت العبرات وترقرق الدمع في عينيها النجلاوين: يا بن العم، ولله وبمقدار حبك لي، ما تحزن أخت على أخ، ولا أم على ولد، مقدار حزني عليك. فأكمل وقد توهجت بشائره بوجودها جواره:

وَاسْتَرْجَعَتْ سَأَلَتْ عَنِّي فَقِيلَ لَهَا: مَا فِيهِ مِنْ رَمَقٍ. دَقَّتْ يَداً بِيَدِ
وَأَمْطَرَتْ لُؤْلُؤاً مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ وَرْداً وَعَضَّتْ عَلَى العُنَّابِ بِالبَرَدِ
وَأَنْشَدَتْ بِلِسَانِ الحَالِ قَائِلةً، مِنْ غَيْرِ كُرْهٍ وَلا مَطْلٍ وَلا جَلَدِ
: وَاللهِ مَا حَزِنَتْ أُخْتٌ لِفَقْدِ أَخٍ حُزْني عَلَيْهِ وَلا أُمٌّ عَلَى وَلَدِ.
فَأَسْرَعَتْ وَأَتَتْ تَجْرِي عَلَى عَجَلٍ فَعِنْدَ رُؤْيَتِها لَمْ أَسْتَطِعْ جَلدِي

فما تمالكت الأميرة نفسها وقد رأت روحه تهفو بين يديها، فاقتربت منه ولثمته بخفة ورقة على فيه. فتوردت وجنتاه بعد شحوب وهم مكملا شعرا فقال:

وَجَرَّعَتْنِي بِرِيقٍ مِنْ مَرَاشِفِها فَعَادَتِ الرُّوحُ بَعْدَ المَوْتِ فِي جَسَدِي
هُمْ يَحْسُدُونِي عَلَى مَوْتِي فَوااَسَفِي حَتَّى عَلَى المَوْتِ لا أَخْلُو مِنَ الحَسَدِ

ثم وكأن فؤاده لم يطق فرحه فأفاض، فما لبث أن شهق شهقة واحدة وأسلم الروح إلى بارئها. فتعالى العويل والنواح من كل أهل بيته وانتشر الخبر فبكاه الناس ورثوه. وقال الشيخ الإمام بعد صلاة الجنازة عليه وبعد أن حمد الله وشكره، ورثى الأمير وعدد محاسنه: حدثنا علي بن مسهر عن أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: من عشق وكتم وعف وصبر غفر الله له وأدخله الجنة. صدق الرسول الكريم. ثم قام الفقيه الأكبر وقال: حمزة سيد الشهداء، وهذا سيد العشاق، فامضوا بنا حتى ننحر على قبره سبعين نحرة، كما كبر النبي، صلى الله عليه وسلم وآله وسلم، على قبر حمزة، رضي الله عنه، سبعين تكبيرة. ووصل الخبر إلى الشيخ العارف عبد الرحمن بن عفي المصري فرثاه في المسجد الجامع، قائلا: ما من محب في الله يبلغ هذا إلا ولي. فهب في وجهه أحد المنافقين من جزيرة العرب مدعي الدين بطول لحية

وقصر جلباب وصرخ فيه قائلا: تعدون موتكم من الحب مزية وفضيلة وإنما ذلك من ضعف البنية، ووهن العقيدة، وضيق الروية. فأجابه الشيخ عبد الرحمن متهكما على قلوب هي كالحجارة أو أقسى: أما لو أنكم رأيتم المحاجر البلج ترشق بالأعين الدعج من فوقها الحواجب الزج، والشفاه السمر تفتر عن الثنايا الغر، كأنها سرد الدر، لجعلتموها اللات والعزى، ودفعتم الإسلام وراء ظهوركم. فأخرس الدَعِيّ الغبيّ. وأما العربيد وقد أعادت له الحياة ما قد نساه من آلام وفقد الصديق الصدوق فكره المكان وقرر الارتحال من كل العراق واستمر سائحا في البلاد فرحل إلى فلسطين ومنها إلى مصر ومن الإسكندرية أبحر إلى صقلية في البحر الشامي ومنها إلى جزيرة مالطة التي ملها سريعا، فتركها إلى الأندلس.

❖

أدعوها إلى السينما ثم العشاء. ترفض الذهاب إلى جرين بلازا. أسألها مندهشا:

- لماذا؟
- كثير من زميلاتي في الدراسة وجيراني يعملون هناك.
- وما في هذا؟
- أنا لا أحب الذهاب هناك.

أتساءل هل ترفض الظهور معي بشكل عام أم يوجد شيء ما لا تحب أن تطلعني عليه. قالت عندما وجدتني ساهما:

- أكره شلل المعهد وحكاياتهم. جئت عدة مرات صالة الرقص التي أغلقت في جرين بلازا أول سنتين بالمعهد.
- أعرف أنك تحبين الرقص.
- كان يوجد رجال سخفاء.

- طبيعي.
- لكني لا أريد أن أذهب هناك. إلا أذا صممت أنت. لكني لا أحب.
- كما تريدين.

نتناول عشاءنا في روستري في محطة الرمل بعد السينما. قالت وهي ترتشف شوربة الطماطم:

- يؤسفني أننا تقابلنا بهذه الطريقة.

قلت مندهشا:

- أي طريقة؟
- ذكرتني السينما بليلتها.

ثم أكملت بخجل وهي تنظر إلى الشوربة أمامها والبخار يتصاعد منها:

- كأنك التقطتني من الشارع.
- أنت تعلمين أن هذا غير صحيح، بالنسبة لي على الأقل.

بمعرفتي بها الآن أستطيع أن أتفهم كلامها هذا. مازالت تظن أني أتصورها كإحدى الساقطات. عرفت بعضاً منهن قبل أن ألتقي بغرام. صحيح أني في أول الأمر تصورت أنها صيد سهل حتى خرجت معها، فلم يعد عقلي يضع للعلاقة شكلا أو تكييفا محددا.

- على العموم، لا تبتئسي يا ستي. فلنغير الماضي كما نشاء.

نظرت إلي بريبة وكأني أسخر منها. فأكملت:

- أنا صادق. نحن أحرار في اختراع الماضي الذي ترضين عنه. من الذي يمنعنا؟ معرفتنا تخصنا وحدنا. وأنت وأنا هنا متفقان. فلتختاري أي شكل للقاء ونتفق عليه ويصبح هو طريقة معرفتنا ببعض.

طلت من عينيها نظرة ميتة تظهر في أوقات عدم قدرتها على الرد.

- هل تشكين في الأمر؟ لدينا القدرة على كتابة مستقبلنا والماضي أيضا. هه؟ أية طريقة التقينا بها؟ أمام قفص القرود في حديقة الحيوان مثلا.

بدأت عيناها في الضحك. فأكملت:

- أم على الجليد في سويسرا ونحن نتزحلق على الجليد. لا فلنكن واقعيين. ما رأيك في محاضرة لي عن تاريخ الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية مثلا، في مكتبة الإسكندرية أو في الكلية. حضرتها ولما انتهت أتيت إليّ وسألتِني: ِلمَ يعتبر أحمس الأول أول ملك في الأسرة الثامنة عشرة رغم أنه آخر ملوك الأسرة السابعة عشرة؟ هه ما رأيك؟ أهو لقاء جيد؟ نحن نملك ماضينا، على الأقل ماضينا المشترك.

وأنا أتحدث معها كان عقلي يسخر مني ومما أقول. سواءٌ كونك صادقا جدا أو كاذبا. ثم إنك من العصر الحجري، لم يعد أحد يستعمل لفظ ساقطة هذا. ساقطة! ها.

لكن ألا تسعدها الفكرة؟

- ما رأيك؟ أنا لن أتذكر إلا لقاءنا هذا. وكنت تضعين وردة صغيرة صفراء في شعرك. أليس كذلك؟

فأومأت بنعم. ابتسمت لها وربت على يدها، ثم أمسكت شوكتي أكمل السلطة.

أعادت كلامي مؤكدة:

- نعم كنت يومها في مكتبة الإسكندرية، كنت أزور المتحف التاريخي. ثم لمحت تنويها عن المحاضرة التي ستلقيها. ولم أكن أعرف من أنت. واستهواني موضوعها التاريخي بعد كل الآثار التي استمتعت بها. كان الجو صحوا، لا لا لم يكن بل كان ممطرا جدا وعاصفاً، مما دفعني لحضور المحاضرة حتى أتجنب المطر. هذا صحيح. كنت يومها أضع كوفيتي متعددة الألوان ونصحتني أمي أن أضع الفراشة الصفراء في شعري. أنت تصورت أنها وردة لكنها كانت فراشة.

ضحكت وأكملت:

- أنت كثير النسيان. كانت فراشة وليس وردة صفراء.

ابتسمت وعلقت:

- أنت أدرى بملابسك. ثم فعلا أنا كثير النسيان. أراك بوردة. لكن لا بأس، فلتكن فراشة.

تحمست أكثر وظلت تقص لي أحداثا صغيرة دقيقة عما حدث. ماذا كنت أرتدي. و مع من تكلمت. ومن سألني. وشكل الإضاءة على المنصة.

ابتسمت لأننا كنا هناك معا منذ يومين، وكانت أول مرة تزور المكتبة. أعجبتني أنها استغلت التفاصيل الكثيرة التي رأتها لتبني بها الماضي الذي تريد.

ثم توقفت فجأة وقالت:

- ولكن ما الذي جعلني أذهب للمكتبة يومها.

- لا ترهقي نفسك يا حبيبتي فيما حدث قبلها. ربما كان القدر هو من ساقك إلى هناك لنلتقي.

وقبل أن تجيب لمحت شريف جنة في نهاية الصالة. يتناول عشاءه مع شخص ما. التفت إليّ لحظتها وبدا لوهلة كأنه اندهش لوجودي لكنها كانت دهشة مصطنعة. من المؤكد أنه رآنا من قبل وانتظر حتى أنظر إليه. قام من مكانه واتجه إلينا. وقفت وسلمت عليه وعرفته على مريم.

- إحدى طالباتك؟

- نعم.

تكلمنا كلاما عاما لثوان ثم قال:

- كنت أتحدث مع دكتورة غرام صباحا.

- حقا؟

- نعم. إنها في باريس.

مضغت الكلمة في فمي:

- باريس؟!

- لقد وجدت تذكرة طائرة رخيصة الثمن على الإنترنت. سافرت للاشتراك في المظاهرة الكبيرة التي ستقام غدا لمَ جدَّ من أحداث في العراق.

غمغمتُ بشيء. فقال:

- آسف. قطعت عليكما العشاء.

سلم عليّ ثم أومأ لمريم منصرفا. وما إن جلست حتى قالت مريم:

- ألم تكن تعرف أن زوجتك في باريس؟

- لا.

نظرت إليّ بطريقتها المستفسرة دون أن تنطق. كانت عيناها تقولان لقد ضايقك هذا الرجل. أمسكتُ بالشوكة أكمل طعامي. نظرت تجاه شريف وجدته يدفع الحساب وينصرف. خمنت أنه سيتصل بغرام الآن. بقينا صامتين ننظر إلى شاشة العرض الكبيرة التي تتراقص عليها أشكال من كل صنف.

رن هاتفي كما توقعت. كانت الرنة التي خصصتها لغرام. وقفت مخرجا المحمول من جيبي وأجبت:

- غرام.

- حبيبي!

- أنت في باريس؟

- شريف قال لك.

- نعم. منذ دقائق.

- أعرف. هل عشاؤك شهي؟

- سلطة قيصر بالفراخ.

- وهي؟ لا تنس أنها تعاني من فقر دم. أليس كذلك؟

صمتُ ولم أرد.

- آلو.

- نعم يا غرام.

- لقد وجدت تذكرة مخفضة لباريس وأنا أنزل عن جولييت وزوجها ريمون. أخبرتني جولييت عن مظاهرة الغد. حاول أن تشاهدها غدا في اليورونيوز أو الجزيرة.

ثم ضحكت مكملة:

- قد تراني وسطها.

- ربما.

- لم تقل لي ماذا تأكل هي. بل أنت حتى لم تقل لي ما اسمها.

- مريم.

رفعت مريم رأسها عند سماع اسمها وعيناها بنفس النظرة الميتة. لا أعرف كيف بدوت أمامها وكلي يمتلئ بالملل.

- اسم جميل. هل نمت معها؟

شعرت بقلبي ينقبض. وأن الهم يرتع داخلي.

- لا.

قالت بسخرية:

- مسكينة. يفوتها كثير من المتع.

- غرام!

أكملت:

- حاول أن ترى المظاهرة غدا.

قلت محتدا فجأة:

- سقوط برجين في بلد قوي: طظ. أسلحة دمار شامل: طظ. الكل يقول إن التاريخ سيتغير وكل شيء سيختلف، ألم تقتل موجة التسونامي في ثانية واحدة ربع مليون شخص، ألا يجعل هذا كل شيء يختلف. ألم يكن يتم طفل صغير مهووس دينيا وجنسيا آثارا على العالم كله.

سكتُ فجأة.

كأن الكلام قد نفد وأنا أفكر فيما اندفعت لقوله. أي خرف! ما بال هتلر الآن وما بيني وبين غرام ومريم. قالت بصوت مترفع:

- نعم. كنت تتكلم عن طفل صغير مهووس.

استدرت وابتعدت عن مريم وقلت:

- غرام. أنا آسف.

– نعم.

كررتُ:

- أنا آسف.

أكملت وكأنها لم تسمعني:

- على العموم ليس من المهم أن تشاهد المظاهرة. أنا أعرف أنك لن تهتم. الجو هنا غير مستقر. راعِ نفسك. عليّ أن أتركك الآن. جولييت تناديني. اهتم بنفسك يا روميو حياتي. سلام.

وقبل أن أرد كانت قد أغلقت الخط.

رجعت لمائدتي أفكر في الماضي الذي نستطيع أن نبدله. رأيت مريم منكمشة على نفسها وقد ازدادت دُكنةً مع الأنوار الخافتة، تنتظرني بنظرة كابية منطفئة.

❖

وأما العربيد وقد أعادت له الحياة ما قد نسيه من آلام وبعد أن فقد الصديق الصدوق كرهِ المكان وقرر الارتحال من كل العراق واستمر سائحا في البلاد، فرحل إلى فلسطين ومنها إلى مصر ومن الإسكندرية أبحر إلى صقلية في البحر الشامي ومنها إلى مالطة التي ملها سريعا، فتركها إلى الأندلس. ونزل غرناطة متخفيا، لأنه كان يريد أن يخبر ربوعها وأهلها. أقام في خان، وأجر غرفة واكترى فرسا. وكانت الخانية عجوزا طيبة القلب مبتسمة المحيا، ولها ابنة تساعدها في تقديم الطعام وتنظيف الخان، اسمها ريم، ممشوقة القد، قائمة النهد، بخد أسيل، وطرف كحيل، وخصر نحيل، وردف ثقيل، إن أقبلت فتنت، وإن ولت قتلت. وكثيرا ما كان ندامى الخان يداعبونها بما يعرفونه من أشعار قيلت فيها تشببا بها، من فتى محب لها قال:

يا ريمُ فاِشفي كَبداً حَرّى وَقلباً شَغِفا

وَنوِّليني قبلةً واحِدَةً ثمَّ كَفى

فأعادوا الأبيات والعربيد موجود، فقال لها: لماذا تحرمينه من هذه القبلة يا ريم؟ أما سمعت ما قالته سكينة بنت الحسين بن على بن أبي طالب رضي الله عنهما، لعزة صاحبة كثير؟ فتساءل القوم في فضول وانتبهت ريم. فقال: دخلت عزة على سكينة بنت الحسين بن علي، ذات يوم، فقالت: يا عزة، أرأيتك إن سألتك عن شيء هل تصدقينني؟ قالت: نعم! قالت: ما عنى "كثير" بقوله:

قضَى كلُّ دَينٍ فَوَفّى غَرِيمَه وَعَزَّةُ مَمطُولٌ مُعنّى غرِيمُها

فتحايت عزة، وقالت: فداؤك أبي! إن رأيت أن تعفيني. فقالت: لا أعفيك بل أعزم عليك. قالت: كنت وعدته بقبلة، قالت: أنجزيها له وعلي إثمها.

فتصايح القوم وقالوا مرحى مرحى، لا لوم عليك يا ريم هيا لا تبخلي على المسكين مطيع. لا تثريب عليك. فاقتربت ريم من مطيع ثم قبلته سريعا على فمه. فصاح مطيع نشوانا:

أعطيتني قبلةً رشفت بها الـ شهد مشوباً بعبرة العنب

كأنني إذ لثمتُ فاك بها لثمت تفاحةً من الذهب

ثم تكلم الندماء في أمر ملكهم الذي يحبس ولده الوحيد منذ فترة في برج عال خشية من نبوءة قالها له متنبئ مغربي يعرف أحوال النجوم ودوائر الأفلاك. فسألهم العربيد عن تلك النبوءة، فقالوا له أن هذا المغربي قد تنبأ أنه بسبب الحب سيكون الأمير الصغير وبالا على غرناطة، بل وعلى الأندلس كلها، لأنه سيقع في اختبار صعب ستؤدي كل حلوله إلى الهلاك. وأن الأمير قد سقم بسبب حبسه في البرج وأصبح عليلا مما أوقع والده الذي يحبه في حيرة. وقد تعجب العربيد من هذا الأمر. وقرر أن يشهر عن هويته ويقدم نفسه إلى الملك عسى أن يفيدهم في هذه المحنة. استقبله الملك وقدم له العربيد فروض الطاعة، وسأله عن الأمير فقص عليه الملك، أنه قد حبس الأمير مع كاهن مصري حتى يكسبه من علمه ما يبعده عن شئون الحب. وكيف أنه رغم كل الاحتياط اللازم، إلا أن المحظور قد وقع كما علم هو من جواسيسه، وأن ابنه الأمير قد وقع في الحب رغم حبسه وعدم رؤيته أي من الحسان، بل منع من معرفة أية فتاة في محبسه. ومع هذا أحب ابنة ملك القوط النصارى. ازداد تعجب العربيد وطلب السماح له برؤية الأمير علـه يستطيع أن يجنب المسلمين ويلات قادمة. فسمح له الملك، وأرسله إلى البساتين التي فيها البرج المحبوس فيه الأمير. دخل العربيد على الأمير فوجد شابا في التاسعة عشر من عمره، شاردا في ملكوته، بديع الجمال، يصبو إلى الكمال، وأرق من نسيم الشمال، متعة للناظر ومحاسنه تحير الناظم وكما قال الشاعر:

رِيقَتُهُ خَمْرٌ وأَنْفاسُهُ مِسْكٌ وذاكَ الثَّغْرُ كافورُ

أَخْرَجَهُ رُضْوانُ مِنْ دارِهِ مَخافَةَ أَنْ تُفْتَنَ الحورُ

يَلومُهُ النّاسُ على تِيهِهِ والبَدْرُ إنْ تاهَ فَمَعْذورُ

ثم سلم عليه العربيد فرد السلام بأفضل منه فبان تأدبه وعلمه. وبقيا يتكلمان فازداد إعجاب العربيد بالفتى وأخلاقه. ثم سأله عن حبسه في هذا البرج. فقال الأمير: قد عرفت من معلمي أن والدي يخشى على من الحب، فمنع عني كل ما يتصل به، لكن الله سبحانه وتعالى قد قدر، والقلم قد كتب. فسأله العربيد: وكيف وقع هذا وأنت محبوس في هذا البرج؟ فقال منشداً:

لقد فَتنتني فرنجيّة نسيمُ العبير بها يَعْبَقُ

ففي ثوبها غُصُن ناعمٌ وفي تاجها قمرٌ مُشْرِقُ

ثم أكمل له شارحا:

بعد كل درس لي مع معلمي المصري كنت أصعد أعلى البرج فأنظر إلى كل الكون من حولي وأشعر أني انتقص شيئا ما، يحاول كل الكون أن يرشدني إليه. حتى أتي الريح لي يوما بعبير ساحر أحاط بي فخلع قلبي مني وجعلني مهموم البال ومشتت الوجد، تلعب بي آمال مبهمة. وتراءت لي بعين الحقيقة حورية نعيم في وسط النسيم ثم ما لبثت أن اختفت. ومازلتُ على هذا الحالِ حتى وشوشَ لي هسَيسُ النسيم: الحب الحب. ولم أكن أدري ما هذا الحب الذي يهمس باسمه في أذني. فسألت العندليب عن معنى هذه الكلمة التي ما برح يهمس بها الريح في إذني. فتعجب العربيد وسأله وهل تعرف لغة الطيور؟ فقال له نعم فإن معلمي مصري علم سحر الكلمات وورث من أجداده معرفة لغة الطيور والحشرات، والتي علموها أيضا لأنبياء بني إسرائيل وأحبارهم كسليمان وداوود عليهما السلام. قال لي العندليب المعروف بصغر جرمه ولطافة شخصه إن الحب روح الحياة. فلما لم أفهم ما عناه قال: هل شعرت بالعبير الذي أتى به الريح لك. فقلت نعم. فقال: لمن هذا العبير؟ فقلت: والله أني أحس أنه من روحي. فقال: هو ذاك. فالنسيم قد هداك السبيل إلى من يكمل روحك. صاحبة هذا العبير ابنة ملك الأسبان النصارى، وهي فتاة رقيقة القلب، بارعة الحسن صاحبة

أدب وعلم، وقد تمدينت فتعلمت العربية على يد مؤدب عربي. فقلت: وهل من سبيل إليها؟ فوالله أنا أشعر أني قد سلمت روحي لها. فقال لي العندليب: ما لي سوى أن أكون رسولك لها. لكن هي لا تفهم منطقي مثلك، ولا تعرف لغة الطيور عدا ما يرف به قلبها برقيق شدوه، فهلا بعثت معي ما تريد. فأخذت ورقة وضمختها بالمسك والزعفران وكتبت فيها هذه الأبيات:

حبيبىَ فى الدُّنيا حبيبٌ مُمنعٌ بعيدُ التَّدانى حاضرُ الشَّخص غائبُه
إذا ما رآه الناسُ قالوا تعجُّباً تبارَك مختارُ الجمالِ وواهِبُه
تَغيَّرَ عمّا كنتُ فيه اعتقدتُه ومَن ذا الذي يبقى على الدهر صاحبُه

ومرت أيام أنا على أحر من الجمر فيها كدت أموت شوقا وحلفت إن لم يأتني العندليب بنبأ سار منها لأقتلنه وأقتل نفسي بعده. ولكني بعد تفكير فجعت في نفسي وفي ظلمي للعندليب وما هو إلا رسول لا حيلة له ولا قوة، وخفت مما تعتمل به نفسي.

أقوم على شوق واقعد عن جوىً ففيه قيامي في الهوى وقعودي
وسددت لي سهماً على البعد صائبا وما كل سهم نافذ بسديد
أردتَ به إما الوريد أو الحشا فلم تألُ إذ أثبتهُ بوريدي
عسى الله أن يرتاح في جمع شملنا ويعقب وصلاً بعد طول صدود
لئن غبتموا عني فإن محلكم ففي مهجتي بين الجوانب والحشا
وأرجو من الرحمن جمعا لشملنا وذلك فضل الله يؤتيه من يشا
....

من الأمير الواله إلى الأميرة المجهولة....

ثم طلبت من العندليب أن يوصله إلى المحبوبة. وغاب عني وقتا كدت أموت فيه لتغلب الحب علي وقد تيقنت أنها منية حياتي ومعناها. ولم آبه ساعتئذ من أمر والدي ونبوءة عرافه وما سوف تجلبه علينا. وقد عاد لي العندليب بعد عدة أيام ومعه رسالة رقيقة تفوح بالعنبر والكافور. ومكتوبة بمداد مخلوط بالمسك بخط دقيق رقيق دل على صاحبته وبعربية فصيحة بليغة:

إلى أميري المجهول: فإن كنتُ لا أفقه لغة الطيور ولسانهم، إلا أن القلب يتسع برحابة الروح. ألقى لي عندليبك خفيف الظل برسالتك وظل يرفرف طربا مغردا. فأن كان ما الله قد ..... العزة ..... الحرب .....فقتل .....ض..ت المملكة .....غضب..... ولكن ما ..... نزل مصر واكترى منزلا... قالت.. وحدة الأيام ... المعابد ثم ... أكتمل. سيدة الأوشا ..... ونذر لها ..... النار. خرج منصرعا... ولما .. كانت .. مونسرات.

❖

بقية المخطوط كلها ألفاظ كهذه منها الممحو ومنها المشطوب والمكشوط والمغسول بماء الدمع، فطمست كلمات أكثر من عشرين ورقة. أحبطت ولكني اعتدت على هذا الأمر في عملي مع المخطوطات. غير أن أمر هذا العربيد أصبح يهمني.

استقالت بعد فترة من عند صديقي متعللة بأنها تستطيع أن تستغل وقتها بشكل أفضل. وعادت لعادتها التي اكتسبتها: قراءة الكتب، تسأل عن حالي، فأخبرها بانشغالي بمخطوط العربيد صديقي.

تسأل مندهشة:

- ما معنى عربيد؟

- فاسد.

تضحك وتقول:

- مثلك؟

- أنا؟!

بدأت أقص عليها قصة العربيد، حكاية وراء حكاية. صامتة وبشغف يشجعني تبدل ملامحها على الاسترسال، إلى أن وصلت إلى غرناطة، وانقطاع المخطوط.

- أكمل!

- لا أعرف. ولكني استنتجت علاقة ما بين العربيد وصاحبة الأوشام السبعة.

فارتفع حاجباها وشردت تماما وهي تتساءل:

- من هي هذه المرأة؟

- امرأة فرعونية.

- لكن ما الذي جاء بامرأة فرعونية إلى الأندلس؟

– آه، نسيت أن أحكي لك عن عودة العربيد إلى مصر. كما أن المخطوطة ناقصة عدة أوراق.

وأكملت:

- يوجد كلام عجائبي عنها وعن اختفائها، ورحيل العربيد إلى الغرب بشكل مبهم.

- قل لي، هل كان المصريون يتكلمون المصرية القديمة وقت العرب؟

- لقد وجدت بعض البؤر التي كانت تتكلم المصرية القديمة حتى القرن السابع عشر الميلادي، أي ألف وثمانمائة وبضع سنوات؟

- حقا؟

- نعم. ثم لا تنسي أن المخطوطة عمل أدبي مثل ألف ليلة وليلة ولا صلة للتاريخ بها.

- ألا نستطيع أن نعرف ماذا حدث له مع هذه السيدة؟ قد نستطيع أن نحل لغز رحيله أو نعرف شيئا عن نهايته ونهايتها.

- لا يوجد حتى الآن مخطوط أعرفه أو كتاب عما حدث له معها، لكني أبحث ربما أجد شيئا ذا بال، سأحاول أن أتكهن باقي الأحداث عن طريق بقايا المخطوط الموجود.

شردت ثم قالت:

- ربما يوجد مخطوط مصري قديم يدلنا عما حدث.

ضحكت وقلت:

- ربما.

- هل تعرف السيدة البولندية التي تعمل في الحفائر. السيدة آڤا؟

تذكرت أني تقابلت مع هذه السيدة ومجموعة بحثها في إحدى الحفلات. تساءلت مندهشا:

- نعم ومن أين تعرفينها أنت.

- من فؤاد.

- فؤاد من؟

- قبل أن أستقيل من عند الأستاذ مختار، صديقك، تقابلت معه. كان يأتي لطلب بعض المعدات الخاصة وتكلمنا كثيرا عن عمله.

- لم تحكي لي هذا من قبل.

- وما في ذلك؟

- لا شيء.

أضافت بعد تردد قصير:

– هو أيضا جاري، تقريبا في نفس الشارع.

صمت قليلا ثم قلت:

- ماذا عن هذه السيدة؟

- إنها تعمل في الآثار قد تدلك على شيء.

- تعلمين أن هذا شيء آخر غير المخطوطات، إنها تعمل في الآثار وترميمها.

فقالت وهي تصفق بيديها:

- ما رأيك أن نكتب نحن هذه المخطوطة؟

نظرت إليها متسائلا:

- ماذا تعنين؟

- نكتبها.

ابتسمت وقلت:

- ألا تعرفين ما معنى كلمة مخطوطة؟

فقالت:

- أعرف ولكن ألم تقل لي أننا نستطيع أن نغير الماضي.

ثم أكملت منقبضة:

– ألم نتقابل في المكتبة أثناء حضوري محاضرة لك عن بعض أسر الفراعنة؟

– نعم تقابلنا كما قلت وكنت تضعين فراشة صفراء على شعرك. أتذكر جيدا. ولكن ليس معنى هذا أن نكتب نحن مخطوطة تاريخية.

فقالت:

– أنا لا أقصد أن نخدع بها أحدا أو أن نزور مخطوطة ثم ننشرها، لا طبعا. ما قصدته هو....

ثم صمتت.

تأملتها، نفس الجمال بتباعده الثقيل السخيف.

وضعت يدي على شعرها ثم اقتربت منها وحضنتها، لم تمانع ولكن تلك البرودة التي تشع منها غمتني بشدة. يقتلني عدم ممانعتها. ألا أغتصبها؟ أعلم أني لن أفعل شيئا. كرهت نفسي لفكرة اغتصابها وكرهت نفسي أكثر لعدم تنفيذي للفكرة.

على الأقل أقتلها!

يداي تلتف حولها وبداخلي قوة ضاغطة قادرة على سحقها في لحظة إن أردت. غير أني ربت عليها برقة وضممتها بحنان مجبر عليه.

قالت وهي بين ساعدي:

– ترى ماذا حدث فعلا للعربيد مع سيدة الأوشام السبعة؟

تفكرت قليلا ثم قالت:

- ولماذا هم سبعة أوشام؟

قلت وأنا أبتعد عنها:

- رقم سبعة رقم مقدس في معظم الديانات، ربما لا دلالة رقمية له، مجرد تعبير عن الكثرة.

- مثل ماذا؟

- فلننظر. سبع سماوات، سبع أراض، سبع سنبلات، سبع سنين عجاف، سبع ....

- أريد أن أكتب أنا هذه المخطوطة.

قلت:

- فليكن.

- أعطني كل ما لديك عن الحضارة الفرعونية.

فقلت ضاحكا:

- إذن ستكتبينها بعد سبعة آلاف سنة!

فقالت متعجبة:

- سبعة مرة أخرى! أرجوك، فلتنتقِ لي الكتب التي علي أن أقرأها.

- حاضر.

- بل أريد أن أقرأ أيضا عن اللغة الهيروغليفية.

- تقصدين اللغة المصرية القديمة، لأن الهيروغليفية مجرد طريقة لكتابة اللغة.

- نعم نعم. أريد كل الكتب. فلنذهب لبيتك.

- لنذهب. ولكن عليك أن تعرفي أن زوجتي هنا.

- ألا تغضب من ذلك؟

- غرام؟ لا. فكثيرا ما أعود إلى البيت ومعي عدد من طلبتي من الجامعة وهي هناك.

ثم أردت أن أكيدها كما تكيدني فأكملت:

– هل تشعرين أن هناك شيئاً بيننا حتى نخفيه عنها؟

نظرت إلى ساهمة وشعرت أنها لا تعرف بماذا تجيب.

قالت بعد برهة:

- كلمني عن غرام!

- نعم.

كان بصوتها نبرة خفيفة من الغيرة. بعيدة لكن بينة وواضحة.

أكملت كلامها:

- أنت لم تكلمني عنها أبدا!

- لنر، هي مشغولة دائما بالطب والسياسة والمحاضرات والمظاهرات والتنظيمات، دائمة السفر...

- ألم أقل لك أنك .... ماذا كانت تلك الكلمة ..... عربيد؟ صح؟

تضايقت من هذا الوصف جدا وكرهته، كأني اتهمت بالخيانة. وتصاعدت موجة من النفور تجاهها، كلتاهما كريهتان.

تعكرَ مزاجي كلية. استدرت بالسيارة في عكس اتجاه المنزل، وقلت لها متعللا:

- فلنشرب شيئا منعشا قبل الذهاب إلى البيت.

- كما تريد.

نقف على الكورنيش أمام القوارب الصغيرة في الميناء الشرقية، نشرب العصير. ترتشفه بمهل وبنفس حركاتها المغيبة المخدرة. تداخل شكل القوارب الملونة واهتزازها البسيط أكمل الخدر الذي شملني.

تقول:

- الحمد لله أني تركت تلك الشركة، تستهلك وقتي دون فائدة.

- أمتأكدة أنت؟

- نعم. بصراحة لم أكن أرتاح لصديقك الأستاذ فلان.

ضحكت وتذكرت صوته وهو يتكلم عنها.

- و كم أنا متشوقة لكتابة المخطوطة.

- أ مازلت مصممة؟

- نعم دون شك.

- إذن هيا بنا نبحث لك عن الكتب التي تريدين.

أثناء اتجاهنا للمنزل شردت مني قليلا ثم قالت:

- أقول لك شيئا: أريدك أنت أن تعيد علي نهاية القصة كما تتصور.

- ألن تكتبي أنت نهاية المخطوطة؟

- لا. أنا فقط سأكتب عن السيدة المصرية سيدة الأوشام السبعة، حتى لقائها بالعربيد. أنت تكتب ما حدث حقيقة لهما وما تستطيع أن تستشفه من الكلمات المتفرقة والخطوط الغائمة والسطور المطموسة في المخطوط.

فكرت قليلا ثم أجبت مراقبا عينيها وهي تبحث عن إجابة:

- أستطيع بجهد كبير وإعمال الخيال...

- رائع. في المرة القادمة. تعزمني على العشاء وتقص لي ما اكتشفت.. اتفقنا؟ رائع، صح؟

- صح.

- والآن أنا أموت شوقا للكتابة عن هذه السيدة. ما اسمها؟

- إيب س لون.

- نعم. إيب س لون.

طول المسافة إلي المنزل أفكر أنها لا تأبه لي بأي شكل من الأشكال. كنت أود أن ترفض الذهاب إلى المنزل وغرام هناك. أن ترتبك، أن تخاف، لكنها كانت كالعادة في عالمها المسحور بطيء الإيقاع. دخلنا المنزل بعد أن رننتُ الجرس كعادتي عندما أكون مصطحبا أحداً معي ثم فتحت بالمفتاح. وجدت غرام تنتظرني على الكنبة الكبيرة في غرفة المعيشة تشاهد برنامجا

تسجيليا في قناة ARTE الفرنسية. ألقت نظرة سريعة علينا ثم قامت ورحبت بي وهي تقبلني. أقدمهما لبعض.

تقول غرام:

- طبعا. أهلا بك يا مريم.

- مريم تريد بعض الكتب عن الحضارة المصرية القديمة، وتريد أن تطلع على المكتبة.

- آه. أهلا.

قالت مريم بتحدي الواثق من نفسه.

- أهلا بك.

تستأذن غرام لبرهة، نكون بدأنا في اختيار الكتب المطلوبة وترجع بعصير لنا. تشكرها مريم. نجلس أنا ومريم على الكنبة. نضع الكتب على المائدة أمامنا ونبدأ في فحصها.

تجلس غرام أمامنا على المقعد ويبدو كأنها تكمل تتابع البرنامج التسجيلي. بقينا لدقائق ننتقي الكتب التي من الممكن أن تفيدها. أمسكت غرام بعلبة مملوءة بقطع الملبس وقدمتها لمريم. تعتذر مريم بابتسامة:

- لا أميل كثيرا للملبس أو للشوكولاته.

فتضحك غرام وتقول وهي تعود جالسة على المقعد المقابل:

- أما أنا فأموت فيها. وكلما زادت مرارتها أغرمت بها أكثر.

بعد فترة قصيرة تختار مريم ما تريده من الكتب التي رشحتها لها، وتستأذن في الرحيل. تسلم عليها غرام بود وهي تتأملها. أوصل مريم إلى الباب واضعا لها الكتب في حقيبة صغيرة. وأطلب لها المصعد وأطمئن عليها حتى تهبط. أدخل الشقة وأغلق الباب بهدوء ثم أجلس بجوار غرام أتابع معها البرنامج. كان البرنامج عن دارفور. تململت قليلا.

تقول غرام شيئا فأظنها تعلق على البرنامج:

- لماذا؟
- لماذا ماذا؟
- لماذا هذه البنت؟
- مم؟
- أنت مكتئب هذه الأيام بسببها. هل تحبها؟

قمت ضاحكا وأنا أقول:

- هل تغارين يا غرام؟
- أنا جادة في سؤالي.

قلت صادقا وأنا أهب واقفا:

- أنت تعرفينني.

سكتت ولم تعلق فدخلت غرفتنا.

❖

أقول لها عندما أقابلها:

- كتاب وراء الآخر. ما كل هذا الحماس؟؟
- تلميذتك يا أستاذ.

وفي مرة سألتني:

- هل تقرأ زوجتك كثيرا؟
- غرام مثقفة بطبعها رغم انغماسها في عملها لكنها تقتنص المعلومات بلا تعب، ذكاؤها الطبيعي يجعلها متحدثة لبقة موسوعية المعرفة، منطلقة في حديثها بعدة لغات لأن جدتها إنجليزية، تتقن الألمانية والإنجليزية، أما الفرنسية فتجيدها مثل كل خريجات مدرسة سان شارل بروميه.

ثم تذكرت غرام بكل حيويتها وعشقها وسطوة جسدها فابتسمت وأكملت:

- كما أنها امرأة لا مثيل لها.

- سأقول لك شيئا. أتعرف أني أغار كثيرا. أتعجب منك أنت وهي. ولا أفهمكما. أنا لا يعجبني أني أغار. لكنها الحقيقة. أنا أغار عليك. لا أعني شيئا ما ولكني عندما رأيتك معها شعرت بشيء من الغيرة.

- بل لأصدقك القول أنا أغار عندما أراك تتكلم مع أي من طلابك بنات أو شبان. لا يعني هذا شيئا. لست أعرف. لكني ..

بالتأكيد هي تريد أن تؤلمني قدر استطاعتها سواء قصدت هذا أم لم تقصده. وإلا ما معنى هذا الكلام؟ تغارين، تحبين، يعني تتمنين قرب من تحبين. هذا ما أفهمه أو ما لا أفهمه. نيلة.

❖

تنشغل عني بمشروعها وابحث أنا عن أي معلومات جديدة عن العربيد عن طريق أصدقائي من المتخصصين حول العالم وفي الإنترنت. وكل حين تظهر أمام مكتبي في الكلية أو في المكتبة ومعها بضعة أوراق وتجلس أمامي قائلة بانفعال:

- أتعرف أن كلمة كذا هي كذا بالمصرية؟

أو:

- الكتاب الفلاني رائع في شرحه لعادات المصريين القدامى...

أو:

- إن اللغة المصرية مرتبطة ارتباطا وثيقا بلغات المنطقة كلها حتى العربية وإن التقسيم القديم عفا عليه الزمن فلم تعد اللغات سامية وحامية مرتبطة بأبناء نوح مثل تقسيم الكتاب المقدس.

أو، أو ...

أقدرها للمجهود الذي تبذله وأتابعها متخذا ما تقوله ومن طريقة عرضها للمواضيع منهاجا لمحاولة فهمها واستبصار دواخلها تجاهي.

اتصلت بي غرام من أسبانيا:

- لن تصدق حبيبي.

- ماذا؟

- وجدت لك في مكتبة الإسكوريال كتابا صغيرا فيه اسم العربيد وهو مترجم بالإسبانية بجانب النص العربي القديم.

قلت منشرحا:

- ما اسمه؟

- انتظر. ها هو. لقد كتبته لك. اسمه: (شرح ما غمض من كتاب أحوال العربيد). عربيدك ذا، كانت له أحوال كبعض ناس؟

- ليس لي علم بهذا. ماذا تقول مقدمته.

- تتكلم المقدمة عن وجود كتاب ضائع باسم أحوال العربيد. إنه بعد ما جرى بين العربيد وسيدته المصرية التي لا أتذكر اسمها الآن مر بأحوال مختلفة. وكتب عنه بعض الناس أو جمعها بعضهم.

- شيء مشوق للغاية.

- سأحاول أن أصور لك نسخة وإن لم ينفع سأنسخ لك الجزء المهم منه. وهو كتيب صغير، عدة وريقات فقط هي الموجودة.

- رائع.

- يبدو أنه جزء من كتاب محقق عن كتاب آخر. ومحققه مستشرق أسباني من أصل أرمني.

- هل تستطيعين البحث عن الكتاب الأصلي: أحوال العربيد.

- للأسف حاولت كثيرا حتى أفاجئك به، لكن لا أثر له هنا.
- على العموم أنت رائعة دائما. أشكرك.
- لا. لا يكفيني هذا الشكر يا حبيبي على بعد كذا ألف كيلومتر.

ضحكت وقلت:

- ماذا تطلبين؟
- على الأقل قبلة الآن عبر الأثير الهاتفي.

أرسلت لها قبلة في الهواء وأنا لا أتمالك نفسي من حبها.

- سأرسله لك بالإيميل بعد انتهائي من تصويره أو نسخه.
- شكرا حبيبتي.

وما إن أغلقت غرام الخط حتى وجدت مريم أمامي مبتسمة ومعها لفافة وتقول:

- تبدو سعيدا.
- أبلغتني غرام بوجود بعض أوراق من كتاب قديم عن العربيد.
- حقا. أنا أيضا جئت لك بشيء أرجو أن يعجبك.
- أرني.
- أنا كتبت اسمك بالهيروغليفية ووضعته في خرطوش ملكي لأنك ملك حقيقي.
- يا سلام!
- أنت هكذا بالنسبة لي. ها هي. ما رأيك؟

فردت اللفافة وكانت جميلة حقا.

فقلت:

- رائعة وجميلة فعلا.

وجدت أنها قد أحاطت الخرطوش بالرموز الثلاثة:

عنخ ، وچا ، سنب .

– وهذه العلامات الثلاثة دعوة للحياة والصحة والقوة.

ابتسمت لتحمسها وقلت:

- نعم. أعرف هذا.

قالت وهي تضحك:

– عنخ وچا سنب لك.

- ولك يا ستي. متى ستنتهين من الأبوكريفا؟

- أبو من؟ لاعب كرة هذا أم ماذا؟

أدركت أنها في مزاج رائق وسعيدة بشكل واضح.

- الأبوكريفا يعني المزيفة.

- قريبا جدا جدا.

تأملت وجهها ونظرة عينيها الممتلئة بشراً.

- أنت سعيدة اليوم.

- نعم. لقد قرُبْت أن انتهي من المخطوطة وهذا يبهجني. كما أني سوف أعمل مع البعثة البولندية للآثار.

- أي نوع من العمل؟

- أعمال مساعدة كتابة وسكرتارية لمصريين معهم في مقرهم هنا بالإسكندرية. لكني متشوقة جدا أن أذهب لأشاهد ما يفعلونه. ربما فيما بعد أستطيع هذا. هم الآن في نهاية مرحلة معينة في ترميم دير في وادي النطرون.

- هكذا! أنا سعيد لسعادتك.

- أعرف.

ثم علمت أنها بدأت تعمل في الحفائر مع السيدة اڤا عن طريق فؤاد الذي كثيرا ما تذكر اسمه في حديثها معي هذه الأيام.

فكرت هل أمانع أن تحبه. كنت مغتاظا من نفسي وأتهمها بكل شيء سخيف. نعم أنا عندي يأس عام من الجنس البشري ولا أظن أن مائة أو ألف شخصية عظيمة تنفي تفاهة هذا الجنس العجيب.

❖

ما أن انتهت مرحلة مهمة في الترميم حتى استحق أفراد الفريق راحة من العمل لمدة قصيرة فانتهزتُ الفرصة وقررت أن نتناول العشاء كي أقص لها ما استنتجته عما حدث للعربيد في بقايا المخطوط من الشوارد المتناثرة فيه. مررت عليها فنزلت لي متأنقة بفستان بسيط رقيق اللون وكأنها تحسب حسابا لهذه السهرة. راقني هذا منها. جلست جواري فضاع عطر جديد عليها لم أألفه. التفت إليها وغازلتها بصراحة:

- ممم. ما أجملك الليلة.
- كان لابد أن أتحضر للحدوتة التي ستقصها عليّ يا شهرزادي.
- عطرك جميل.
- إنه هدية من فؤاد.

ثم قالت وهي تهز رأسها هزة بسيطة ببؤبؤين متسعين وبعينين تلمعان تماما:

- أما الفستان فأنت أدرى من أهداني إياه. ذوقه جميل، صح؟

كان فستانا قد أهديته لها منذ أكثر من عام عندما كنت عائدا من سفر سريع لي بالخارج. لم ترتديه لفترة حتى شعرت أيامها أنه لم يعجبها أو لم

يناسب مقاسها، فنسيته حتى ذكرتني الآن به. صفرتُ لحن شهرزاد الشهير لكورساكوف وقلت لها:

- إلى أين؟ أين يريد أميري أن يتعشى؟

ابتسمتْ.

- ألست شهرزادك الليلة. إذن أنتِ أميري القاسي الذي سأحاول أن أروضه. هه؟ إلي أين؟

أكملت اللعبة قائلة:

- بهذه المناسبة الفخمة أريد أن آكل ...

ثم أخذت شهيقا كبيرا وأكملت بنبرة فخمة:

- سندويتشات فول.

فقلت وأنا أفتعل الإحباط:

- بكل هذه الأناقة و ... فول؟

فضحكت وبانت أسنانها الصغيرة الجميلة.

- إذن سمك.

- إذن Sea Gull في المَكْس.

- رائع.

كان واضحا أنها في مزاج رائق هذه الليلة مما أسعدني أنا أيضا. وصلنا المطعم ونحن نضحك على فريق العمل الذي تعمل معه، وما يصادفهم من مشاكل ونوادر. اخترنا منضدة قريبة من البحر في ركن هادئ من المطعم. لم يكن المطعم مزدحما مما هيأ لنا الجو الذي نريده. جلست قدامي ثم طلبنا الطعام واستحثتني على بدء الحكي عن علاقة العربيد بسيدة الأوشام السبعة. استعددت وقلت:

- فيا ستي! لما غربت شمس المملكة في الأندلس لعدم إتباع الأمير الاختيار الأصوب بنصح العريد له، حتى كانت جيوش الفرنجة والأسبان قد هزمت العرب وقتل من قتل وشرد من شرد. واستعاد العريد شعوره بالحزن وتذكر الأهوال التي خطت في حياته، وتجربة فقدانه الأصدقاء والخلان الذين أحبهم وأخلص لهم فقرر الرجوع إلى بلاده التي لم يعد إليها منذ أن حل بها الخراب. صارت تهفو لها نفسه لكن هاب الرجوع، فآثر العدول عن العودة وقرر أن يستقر في المحروسة التي تحنو على الضعيف وتحن على السائل أياً كان وتلم شمل الجميع. المحروسة مصر التي تتسع لكل مسكين هائم وكل محب مكروب وكل ملك جائر وكل نبي ثائر وكل طاغٍ قاسر.

- إيه؟ أنت ناوي تشحذ بي على باب "السي جَل"؟

- اسمعي بس. هذا ما قرأته، رجع إلى مصر في مركب محمل بالمحزونين المهزومين. ونزل القاهرة واكترى دارا فسيحة.

- حلوة "اكترى" دي.

- أجّر يا ستي. أجر دارا كبيرة واستقر بها. لكن ما لبثت الأحلام والرؤى أن أرقته حتى أصبح لا ينام أو يهنأ بليل أو نهار. تحاصره في الحلم مردةٌ حجرية ويفر إلى بحر لونه أصفر وأمواج كالجبال حتى يجد رقعة مكتوب عليها كتابة غريبة بخط لا يعرفه، ويظل يحملق فيها حتى يبدو كأنها تتحول إلى حروف عربية، وقبل أن يفك طلاسمها تشب فيها النار وتمسك به فيهب من نومه مفزوعا مكروبا. دفعته الأحلام إلى المشعوذين ومفسري الأحلام الذين نصحوه بالسفر إلى البِرّيات والجبانات في صعيد مصر حيث المساخيط العملاقة من أهلها القدامى.

- جمع بِر بِا، المعابد يعني، من بِر يعني بيت و بِا أداة التعريف. صح؟

أومأت لها برأسي موافقا وأكملتُ:

- أبحر جنوبا في النيل العظيم حتى وصل إلى بلدة بالصعيد اسمها الأقصرين. وقف وسط الخرائب يتأمل أناس الأيام الغابرة ويتعجب من الزمن

وأفعاله. وتمعّن في الرسومات التي على الحوائط والأعمدة المهولة، حتى أمسى، فقرر المبيت ونصب خيمته في رحاب المعابد والقصور التي أخنى عليها الدهر ودالت دولتها. أشعل نارا ليتدفأ بها. تراقصت الصور المنحوتة على الحائط أمامه. كان المشهد لفتاة جميلة تتوسط أخريات ترقصن وتعزفن على آلات مختلفة ويبدو واضحا أنها تغني. وخيل له أن الفتاة المغنية تنظر إليه وكأنها تحييه. رفع المشعل عاليا وقرب النار من الحائط. شعرها حالك السواد منهدل على كتفيها كثير اللفائف. تناهي إلى سمعه نغمات بعيدة ثم بدأ صوت نسائي جميل يصدح بلحن خالب للألباب ما سمع مثله من قبل رغم طول معاشرته للمغنوتية وكثرة ترحاله. علت الألحان ووضح الصوت. التفت حوله يحاول أن يحدد مصدر الصوت لكن الظلام غطى المكان كله. رجع بشعلته جهة الحائط ففوجئ بالجوقة كلها حوله تخرج من الظلال المتلاعبة. الراقصات بزيهن الشفاف الأبيض والعازفات متحلقات حول الفتاة ذات الصوت الرخيم. أمسكت به الراقصات وأجلسنه وصرن يرقصن مع الغناء. بدت الفتاة كأنها تغني له وحده، فوجد نفسه مخمورا بجمال صوتها. حُيّر حتى كاد يذهب عقله. سهر الليل وانساق معهن حتى غيبته النشوة فما عاد يدرك وجوده أو وجودهن. أفاق على أشعة الشمس تداعبه. يا لها من ليلة. أفاق فما عرف إن كان هذا قد حدث علما أم حلما. صمم على الانتظار عسى أن تتجدد مرة أخرى في الليل. تجول في البلدة الصغيرة واستفسر عن أصل المعبد الذي كان به عساه يعرف شيئا يدله على صاحبة الصوت وجوقتها. إلا أن كل الناس قالت إن المكان مسكون ولا يدخله أحد ليلا على الإطلاق. وقبل أن تغرب الشمس كان في مكانه أمام الجدار المنقوش عليه صاحبته. تأمل الصور ومد يده يتحسس فتاته الجميلة ورغم برودة الأحجار شعر بأنفاس دافئة تلفح يده. طالت نظرته وتأمله لفتاته إلى أن فاجأته الظلمة والأعراب قطاع الطرق الأشد كفرا ونفاقا الذين دخلوا عليه المعبد وأحاطوا به ونهبوا نقوده وأغراضه وهمّوا بقتله إلا أن كبيرهم لسبب مجهول تركه يرحل وقال له لا ترجع هنا أبدا مرة أخرى. هام على وجهه في ظلام الليل حتى تملكه التعب فنام وعندما أفاق صباحا وجد نفسه في صحراء لا أول لها ولا آخر. حاول أن يحدد الاتجاه الذي أتى منه لكن ما أن انتصف النهار حتى أدرك أنه قد ضل

طريقه تماما. حميت الشمس حتى استعرت وبات موته مؤكدا. أسلم أمره لله؛ ربه ومولاه وبقى يفكر في تلك التي كانت تغني له الأمس وتذكر الحلم الذي أوصله لهذه الصحراء. ومن بعيد لمح غزالا جميلا آتيا يمرح، تصور أنه سراب خادع وفكر أن كل حياته ما هي إلا هذا السراب الخادع. وهيأ نفسه للموت. لكن الغزال ظل يقترب منه حتى لامسه وأنزل رأسه يتمسح به ثم فاضت عينه بدمع رقراق. فاستعجب العربيد لأنه لم ير أبدا غزالاً يبكي. تراءت له خيالات غزالة رؤوم ترضعه. فاستعجب. وتذكر ما كان من أمره في مُلك عمه. دفعته الغزالة برقة حتى قام وكأنها نفخت فيه من روحها وأرشدته إلى واحة صغيرة وعين ماء صاف على مسافة قريبة لكنها كانت محجوبة بالتلال. وبعد أن ارتوى، ملس على الغزالة بالماء فبانت أوشام سبعة بأشكال غريبة منقوشة على جلدها. تأمل الأوشام ومر على كل منها كأنه يعيد كتابتها من جديد فبدأت تتحول بالتدريج وتتبدل هيأتها حتى استوت أنسية جميلة جمالا ما رأته عين من قبل. تأملها فإذا هي المغنية التي سحرته. بسمل وسبح لله على كمال وجمال خلقه وإبداعه. جلست بجواره وكلمته باللغة المصرية التي لم يكن يتقنها فبان على وجهه عدم الفهم، فبشت في وجهه وكلمته بالعربية وقصت عليه قصتها وكيف أن الحتحورات حولنها إلى غزالة إنقاذا لها من الآسيوي الغامض الذي أراد أن يغتصبها ودمر المملكة مما أدى إلى هيامها لمئات السنين انتظارا لهذه اللحظة التي عرفت أنها ملاقياه فيها. وقالت أيضا إنها أرسلت له باءها في المعبد لما رأته ينظر لصورتها كي تهيئه للقائها، لكن الأعراب سبقوها وطردوه من المعبد، لذلك بحثت عنه حتى اهتدت إليه. قالت إن الحتحورات قلن لها أنها ستجد من يحبها وتحبه لتكون له ويكون لها في أرض الدنيا وبعد الانتقال إلى هناك.

انشرح قلب العربيد لما سمعه وعرف أنها كعبته وأنها المنتهى وأنها القدر الكان مخفيا وأظهره رب العباد. تركا الصحراء واتجها صوب البلدة. وصلا إلى الطريق الزراعي واستقلا تاكسي العاصمة حتى وصلا إلى كايرو بلازا.

- أي خرف هذا! أرجوك أكمل.

- إذن أكملي أنت أكلك حتى لا يبرد.

- هل الموضوع انتهى عند هذا الحد؟ هل عاشوا في تبات ونبات وخلفوا صبياناً وبناتا؟

- المخطوط لا يقول هذا. هناك مشكلة.

عبست قليلا وقالت متوجسة:

- أهذا صحيح؟

- نعم.

- إذن أكمل أكمل.

سعدت لأنني أستحوذ عليها كل هذا الاستحواذ. أشدها قربا قدر استطاعتي. أردفت:

- طيب، نرجع لهما. اكتملت سعادتهما عندما أدركا بشكل واضح أنهما جزءا الدائرة وقد اكتملت أخيرا بعد أن هامت روحاهما وعذبتا بالنوى والفراق. لكن..

- لكن؟

- لما كانت ليلة العرس...

- لا تقل لي أنه اكتشف أن العروس ليست عذراء ولا يسلم الشرف الرفيع من الأذى والحاجات دي.

- لا. لك أن تتخيلي مقدار تعاستهما عندما يكتشفان أن ما أن يتلامسا حتى يصيبهما ألم مبرح لا طاقة لهما عليه، وكأنهما يحترقان بنار خفية. حاولا عدة مرات إلا أنهما فشلا رغم الصبر والجَلد، ولم يحتملا اللهفة التي يؤججها العشق وزادت رغبتهما في الوصال حتى كادت أن تقضي عليهما. فلا هما بالبعيدين فيتسليان بالشوق ويعولان همهما على الفراق ولا هما قادران على الوصال فيهنآن. سأل المنجمين فقالوا له مقدر ومكتوب. قرأوا له الماضي وقالوا له أن والده عندما طلبه من الغيب نسي نصيحة الناسك

الهندي بأن يقدم قربانه لإلهه بعدما وصل الجزيرة التي بُرئ فيها. فكانت اللعنة التي طالت الأب عليه وعلى مملكة أخيه وأسرته، أما اللعنة التي حلت على العربيد فكانت أن يظل طوال حياته محروما من الحب الحقيقي وإن وجده لا يتحقق له الوصال أبدا.

يئس العربيد وسيدة الأوشام السبعة بسماعهما هذا الخبر فباتت الحياة لا تطاق والحبيب قريب قرب حبل الوريد والوصال مستحيل تام. وكلما مرت الأيام ثبت لهما صدق ما قاله العرافون، فقررا أن يعيشا حياتهما دون وصال مكتفيين بالقرب من ريح الحبيب. لكن القرب ذاته لعنة ما بعدها لعنة فهو لا يفي لأنه يتطلب المزيد والمزيد. فيقرر العربيد أن يتواصل مهما تألم وحاول جهده أن يقترب منها واحتمل قدر استطاعته أي ألم شيطاني، لكنه لم يتحمل ألمها، فقررا أن ينهيا حياتهما بالتعانق في نيران تحتويهما إلى المنتهى. أوقدا نارا مهولة في أوسع ساحة وأشهدا الناس على تعاستهما ووقف الخلق يتطلعون ويتأسفون لحال هذين المحبين البائسين. لما استعرت النار تماما وأصبح لهيبها يشوي الوجوه البعيدة وقف العربيد وحبيبته إيبسلون أعلى منصة متلاحمين وقفزا في النار وسط شهقة من الجمع. ظلت النار مشتعلة سبعة أيام وسبع ليالٍ، وما انفض الجمع من حولها حتى هدأت تماما. وانذهل الناس وهم يرون العربيد يخرج منها سليماً معافى وكأنها نار إبراهيم. لكنه يخرج مذهولا وهو يصيح قد أنقذتني بأوشامها السبعة. حماني كل وشم يوم وليلة. كل يوم ينحرق الوشم يعطيني أنا حياة أسلبها منها وهي أحق مني بما مُنحت. يبكي ويلطم وجهه ويقول: انتظرتني أعوام وأعوام كي أحررها وها هي تفتديني بهبات المحبات لها. ظل يبكي ويهيل التراب على رأسه حتى سقط مغشيا عليه وحمله الناس لبيته وراعوه أسابيع حتى رجع لصحته لكنه ما رجع أبدا لسليم عقله. وانتابته أحوال حار الناس في فهمها. فمرة يضحك وكأن ما حدث حلم لا قيمة له ومرة أخرى يبكي حتى يبكي الناس معه وعليه. وهذا هو حال العربيد، عربيد بلاد العشق.

صمت وأنا منفعل بما كنت أقصه وطال صمتنا وارتفع صوت تنفسنا حتى كاد المحيطين بنا في المطعم يلحظون تغيرنا. كانت مريم تنظر للطبق

أمامها وظلت لفترة لا ترفع عينيها عنه ثم رفعت رأسها ونظرت إلي متشككة ثم قالت:

- أصحيح ما قلته لي الآن؟ أهذا ما استخلصته من المخطوط؟

- صدقا هذا ما استخلصته من الكلمات المنثورة والممحوة. لست أدري ربما يوجد قراءة أخرى لها، لكني أكاد أجزم أن هذا ما يمكن أن يخرج منه أي مدقق للمخطوطات.

ظلت تنظر إلي بعدم ارتياح. آلمني هذا جدا. ما أتعس كل شيء. نعم ما كذبت عليها. هكذا قرأت المخطوط اللعين. صرت أكرهه وأكره هذا العربيد تعيس الحظ.

هزئتُ منه فقلت بصوت عال.

- صح.

فنظرت نظرتها المشدوهة وسألت:

- ما هو الـ (صح)؟

- لا شيء. شيء سخيف!

ربما قدرت ساعتها مقدار الألم الذي تسببه لي من شكها فيما قلت، فأرادت أن تتخفف من ثقل الموقف، فابتسمت وكان تغيرها سريعا فأدهشني.

- أنت رائع.

أوصلتها. وكل يوم يزداد ألم تواجدها حتى تمنيت أن تختفي بشكل ما. أعرف أن الحياة كلها أفِكة كبيرة ولا شيء حقيقي. حتى هذه القصة بكاملها لكن ما معنى الألم؟

أخيرا جاءت بمخطوطة مرسومة ومزينة برموز هيروغليفية. كان شكل المخطوطة طفوليا وجميلا. خطها منمق ملتو، وملفوف حول نفسه.

قالت لي وهي تتأملها معي:

- ها ما رأيك؟

نظرت إليها وقلت:

- الهيروغليفية كتابة ساكنة، وحركاتها مخفية لأنها مقدسة، فهي التي تحمل روح الكلمات.

- ماذا تعني؟

- لأنها تمثل عدمية الصوت. وانتصار الشكل.

هزت رأسها وقالت وهي تتأفف:

- لا أفهم.

- قصدي إنها عمل جميل مثلك.

كررت هز رأسها ومطت شفتيها ثم قالت:

- أهذه الجمل غير المفهومة تعني كل ما قلت؟ ما شاء الله. قل لي: ألهذا وافقتني على أن أكتب المخطوطة؟

- لكن أنا لم أصر، أنت من صمم.

- شكلها جميل، صح؟!

- اتركيها لي من فضلك حتى أقرأها على مهل.

- ستصححها؟

- إذا سمحت لي.

- نصححها معا إذن.

- ممكن جدا.

كنت أفكر: يكفي أنها منك أنت يا ظالمة.

في المصرية القديمة "عا" يعني عظيم. و"عا" أيضا تعني حمارا، لكنها تكتب كالـ (عا) الأولى لكن بوضع قضيب بشري ورسم للحمار.

أقف أمام المرآة وأقول: عا عا عا.

الله يخليك يا عم فرعون. عا عا عا.

❖

سيدة الأوشام السبعة

هذه كلمات النبوءة التي قالها الإله چحوتي رب الألفاظ الإلهية، وألقاها على لساني أنا المسمى "عا مو رع أف تي"، الصديق الأوحد، محبوب سيده الإيماخو، القريب من أوزير، حامل النعلين وحامي القصر، فقمت أسطرها وأنقشها على الحجر لسيدي الملك "خِتِم إيب رع"، ذلك الذي يتحد بقلب رع، الصادق القول، الذي أبحر إلى الحياة، وصعد إلى أفقه واتحد مع قرص الشمس حتى تنضم أعضاؤه إلى أعضاء خالقه. ذلك الذي حكم كما في زمن رع، مثلما كانت تحكم الإلهة البشر. فهو الآن يستحق السكن مع أصحاب الزمن الأبدي، بريئي الساحة، صادقي القول.

قال چحوتي:

ستبدأ هذه الأحداث في السنة الثانية،

الشهر الثالث من فصل "أخت"،

اليوم العاشر في ظل حكم جلالته (الملك العقاب):

عنخ ☥، وچا، سنب. الحياة والصحة والقوة له. ابن حور عامود أمه وحامي أبيه.

في مدينة (واسط) صولجان المدن عظيمة الأبواب، حيث ستولد الطفلة الإلهية (إيب س لون) من أبوين طيبين سعيدين. ستكون أمها محروسة من إيزه الربة الحامية ومن أختها الربة نفتيس، وسيكون أبوها مرعي من حور ابن أوزير نفسه.

دعاء:

تعال إليّ يا إلهي العظيم البهي. أنت الذي يرنو إليك كل من في أرض مصر والعالم. الواحد هنا وهناك. تعال إليّ كي ترشدني حتى لا أضل إليك دربا في الأرض أو السماء. الحمد لك يا باسطا ذراعيك لتستقبل محبيك.

تأتي الإلهات في موعد ميلادها وتتحولن إلى راقصات غير مرئيات وهن يعزفن افتتاحية موسيقية بالقلائد والمصلصلات. وستكون ملامح الطفلة من ذهب الشمس ولازورد السماء، يشكل جمالها وكمال جسدها على عجلته الفخارية الفاخرة الإله خُنْوم، كما شكّل من قبل كل الخلائق، بارئا كاءها التي سوف ترافقها على أرض الحياة.

وما أن تراها القابلة حتى تكون صرختها هي اسم الوليدة:

(إيب س لون)، كانت الصرخة وكان الاسم.

دعاء:

أيتها الخالدة. أنت التي سمح لك رع أمون بالحياة فكنت وحدك منبع النهر وكنت وحدك مصبه.

وما أن رأت الوليدة النور حتى أتت حتحور، سيدة الجبلين، ربة الأماكن البعيدة، إلهة الرقص والموسيقى والحب في موكبها الفخم على صفحة النيل العظيم كي تنظر للمولودة السعيدة (إيب س لون). أسندت حتحور الربة الأم الطفلة على صدرها وأرضعتها لبنها الإلهي هي وكاءها في آن واحد، لتكون لها العزة والرفاهة والسعادة. تعلو في حياتها إلى أن تصعد إلى السماء وسط النجوم التي لا تفنى، وجاعلة أختها سپدت، نجمة الصباح، تشرق معها وترشدها إلى حقل القرابين.

كلمات تقال:

كوني طاهرة ولتكن كاؤكِ زاهرة كاملة نظيفة.

وبعد أن سكنت الوليدة، تركتها الربة في بركتها وأكملت مسيرتها السماوية. ثم أتت الحتحورات السبع وأسبغت كل منهن دعوتها عليها.

قالت الحتحورة الأولى:

- نفرو، الجمال صنو الوجود. فأكمليه بك. أنت أنت الجميلة.

ووشمتها الوشم الأول.

ثم تقدمت الثانية:

- الحكمة أصل الحياة. فلتمسك بها كاؤك حتى تصلين سالمة للشط الآخر. أنت أنت الحكيمة.

وهكذا كل حتحورة تمنحها ثم توشمها.

منحتها الثالثة الرقة والرحمة، والرابعة الرقص، والخامسة الصوت الساحر، والسادسة روعة العزف، والسابعة العفة. وعندما انتهين أكملن طريقهن بصحبة الإلهة حتحور.

ولكن كان لآمون رع رأي آخر!

نذرتها أسرتها لخدمة الآلهة فتعلمت في المعبد المقدس تحت إشراف الكاهن واعب، الطاهر النقي، فكانت كالبدر للقمر، وكالخبز الطازج للعجين. قدمها للفرعون بعدما ينعت وأزهرت وقاربت أن تثمر. فبهرت كل من في القصر بتمام جمالها وسحر صوتها. وطارت شهرتها حتى وصلت للأراضي البعيدة فكانت الرسل تأتي من كل بلاد لوبيا وبلاد بونت وبلاد الفينيق كي تشاهد هذه المعجزة الإلهية.

فاقت كل أقرانها وأصبحت على صغر سنها أشهر فتيات القصر الملكي ومحبوبة أمير مصر العليا وابن الفرعون المجيد صاحب التاجين، ونقش لها في المعابد وكتب عنها الكتبة، ورفعت في حياتها إلى مصاف الآلهة فعُبدت وانتشرت عبادتها في أرض كيمي السوداء.

عندما كانت هي والأمير يتنزهان في ربوع القصر، تمنى عليها أن تشجيه بصوتها الجميل فغنت له أغنية ذاع صداها فكانت هي أغنية العشق على كل أرض مصر الفتية:

يا حبيبي
ما أحلى أن نذهب
معا إلى شاطئ البحيرة
لأستحم
أمام عينيك.
ودونما استعجال
ستقودني خطواتي
نحو الماء
وستتابعني عيناك

وعندما تشير إلىّ
وأخرج ملبية لرغبتك
وبين أصابعي سمكة حمراء
والثوب الشفاف ملتصق بجسدي
سترى بعينيك جمالي.
فماذا تنتظر؟
تعال
لتملأ ناظريك بجمالي.

ثم قامت ووضعت قدمها الصغيرة في مياه النيل الحاني. ونظرت إليه ضاحكة مستبشرة. فرفرف قلبه الشاب بهواها ورد عليها وقد ألهمه الغرام كلمات الحب فرفع صوته بالغناء:

عندما يضمني ذراعاك
وتحتضنني
يصيبني الخدر
وأهيم في عالم آخر
في حديقة فواحة بالزهور
بعيدا
في بلاد بونت
عندما نتبادل القبل
وتنفرج شفتاك
أغيب عن الوعي
بدون خمر
أتمنى لو كنت مجرد خاتم
حول أصبعك الصغير
حتى يتسنى لي
ملامسة أناملك
في خلسة من الآخرين.

وبدأت مصر تستعد كلها للاحتفال بارتباطهما المقدس.

إلا أنه في البلاد الوعرة التي يقيم بها الآسيويون الأخساء، تلك البلاد التي ماؤها شحيح والوصول إليها عبر متاهات وعرة من الصحارى الجبلية، تلك البلاد الظالم أهلوها. الآسيوي لا يقيم وزنا لشيء، ويعيش منبوذا من المجتمع، وهو أشبه بجدار مصمت يتحول إلى تمساح يعيش في المستنقعات. سيحاربه الفرعون وابنه الجميل لينقذ الأرض الطيبة السوداء أم الوجود وأصل الحياة.

لكن سينحاز السفلة للأجنبي، وسيخترق صدر الأمير سهم الغدر فينقله إلى الجانب الغربي وفي يده حفنه من أرض الخير.

دعاء خوف:

آمون! أيها الإله الخفي. نسبح بحمدك. أنت الإله العادل الكامل الواحد. أنقذ أرض كيمي الخصبة السوداء، مصرنا الجميلة وأهلها. فأنت الأعلم والأقدر. يا آمون العظيم الكريم الغافر القهار. آمين.

تخاف الحتحورات على إيبسلون، فينادين الإلهة حتحور الأم لتأتي وتحولها إلى غزال شارد يعبر الأزمان، ويطلقن تعويذة لإعادة الروح إلى الجسد، وعلى القارئ والمستمع ترديدها:

يا أيها الذي يصحب أرواح الأحياء،

يا أيها الذي يمزق الظلام،

وأنتم يا جميع من هم خلف الأحياء،

استحضروا روح مصر لتتحد بجسدها.

إن قلبها مثل نور رع، وشريانها مثل النهر الكريم "حاپي".

من أجل قرينك، من أجل جسدك، من أجل روحك، من أجل ظلك، من أجل مومياواتك،

طاهرة أنت، طاهرة قرابينك. أيتها الآلهة في المعبد الكبير.

كلمات تقال:

تكتب السير للخَلف ليقرؤوها ولا يبخلون بالصلاة والقرابين علينا نحن الكاتبين لها، فنحيا للأبد ولا ننفصل عن الظل فنفنى، ويظل اسمنا واسمك العالي يا آمون مسموعا، فلا تهجرنا أرواحنا، ونغدو وكأننا لم نوجد قط.

لن يطول المقام بأحد في "البلد المحبوب" ولن يتخلف أحد عن الاقتراب من بلد الأبدية.

كلمة الختام:

إليكم ما قالته باءي:

"يا أخي: عندما تصل إلى الغرب في حينك، عندما ينضم مالا تملكه للأم الأرض، عندئذ سألحق بأبي في السماء وسوف نقيم سويا بعد أن يكون التعب قد أعياك.

تلك الحياة الدنيا بهجة لمن يقدم قربانها للنار. والقربان هو أنت يا أخي، يا أنا. الكل باطل إلاك."

...

قامت بكتابة هذا المخطوط الكاتبة ذات الأنامل البارعة "ميري إم" وسطرت كلماته لمعلمها العربيد وهي صافية القلب، ومن سيتكلم في حقه بالكذب كائنا من كان، يصير "چحوتي" عدوا لدودا له.

❖

تقول وهي تحتمي بي في الفراش:

- لا أصدق. الجو هنا أكثر برودة من أوروبا.

- ربما لأن البيوت معدة لذلك هناك.

- نعم . البيت هنا بارد.

ثم تقول وهي تلتصق بي أكثر:

- هناك أيضا بارد لأني بدونك. أعرف أني أتكلم كثيرا ولكن الحياة باردة ببعادك عني. أنا أريدك أن تكون سعيدا.

أصمت متأملا كلامها ثم أسألها عن شريف وأخباره. تقول دون اهتمام:

- لم أره منذ آخر مرة حكيت لك فيها. ياه. أكاد أكون نسيته. يتصل في بعض الأحيان. وبصراحة أصبح ثقيلا على روحي منذ فترة.

- لم؟

- لا أعرف. أظن أنه رغم كل الضجة التي يثيرها من الظاهر فهو خفيف الشخصية. وأنا أموت في ذوي العقد "كومبليكادو كومو تو"، يعني معقد مثلك.

- الله يحفظك.

- لكن هذا حظي وأنت نصيبي الذي لن أتخلى عنه أبدا.

- .. ووجدت "أحوال العربيد"!

- من أجلك ذهبت إلى مكتبة الإسكوريال. لديهم كمية كبيرة من المخطوطات العربية. أما هذا الكتيب فوجدت أنه جزء من أصل ضائع. نسخت لك أهم أجزائه.

- أنت رائعة كعادتك.

- طبعا! ألن تأتي لزياتي في أسبانيا؟

رددت مقلدا لهجتها:

- طبعا.

أسبوع واحد تفور فيه كعين حارة تنبع في الصحراء. أسبوع مجنون مثلها، قوي وعنيف كجوه العاصف، أتخلى فيه عن مريم.

أسأل عنها أجدها مريضة بنزلة برد حادة. تحذرني أن أذهب لزيارتها. أكلمها عدة مرات يوميا. بعد أن استقرت حالتها، ومع اعتدال الجو مؤقتا أمر عليها بالسيارة. أجدها قد شحب لونها ونقص وزنها بشكل واضح. أدور معها في الشوارع التي حرمتْ منها طوال عشرة أيام. نجلس، نحتسي القهوة الساخنة في الأماكن الدافئة. ثم أرجعها إلي البيت.

أصاب بالاكتئاب ولا يخرجني منه سوى حل لغز في مخطوطتي الجديدة. بدأ الجو في التحسن ورجعنا لمعدل خروجنا القديم. تحسنت صحتها بشكل معقول. واكتسبت حمرة خفيفة على سمار خديها. قالت:

- أشعر بالملل من رتابة العمل في المكتب مع البعثة. أتمنى أن أرافقهم في رحلاتهم. كما أني مللت من القراءة. أريد أن أرى شيئا جديدا. لا أريد معارض ولا متاحف.

- هل رأيت رشيد من قبل؟

- لا. أنا لم أر سوى للقاهرة عندما كنت أرجع من السعودية.

- يعني نقول رشيد! الجو بدأ يتحسن.

فابتسمت بسعادة واستندت على مسند مقعدها بالسيارة وقالت:

- إلى رشيد.

كانت غابات من النخيل تحف الطريق المشمس الجديد الخاوي. ومن بُعد يخايلنا البحر من وقت لآخر بين التلال الرملية الجميلة. بدا واضحا أنها سعيدة. وصلنا رشيد وعبرناها. سألتني:

- ألن نتوقف هنا؟

- لا. سنذهب إلى مصب النيل في البحر. إنه منظر خلاب.

- كما تريد.

- وإن أردت نعود للفرجة على رشيد البلد. البيوت العثمانلية والقلعة.

- كما تريد.

وصلنا عند مصب النيل، والجو في تحسن مستمر، حتى لكأنه يوم احتفالي للطبيعة. ركنا السيارة وترجلنا.

- يا الله! ما أجمله!

- نعم. عندَكِ حق.

فجأة رفعت صوتها بترنيمة حزينة، مقاطع صوتية مبهمة تحوي سموا رائعا. كنت أقف خلفها، ابتعدت أكثر كي أشاهد كل جسمها متناسقا مع المشهد المفتوح أمامي. وقفتْ بسمار بشرتها المشدودة وحلكة شعرها وبفستانها المهفهف ككاهنة مصرية تصلي للكون الرحب وإلهه البارئ. لم أكن أرى وجهها لكن كانت تخطف روحي كلما امتلأ صدرها بنفس واسع بين النغمات. فأرى كتفيها يبتعدان ويمتلئ صدرها لعشر ثانية بالهواء كأنه شهقة ملتاع ثم تمضي في ترتيلها الجميل. "يا الله!" كما قالت منذ دقائق. انتهت من الترنيمة والتفتت إليّ وفي عينيها فرح طفل نجح في حفظ أنشودته أخيرا بلا خطأ.

- رائعة. من أين تعلمتها؟

- أتتذكر هانز الألماني الذي حكيت لك عنه؟ الباحث في التراتيل القبطية وأصولها المصرية القديمة. كنت في غاية السعادة عندما علمني هذه الأغنية، وكنت أتدرب عليها حتى أفاجئك بها لعلمي أنك ستحبها. صح؟

تقدمت وأنا أبتسم لها وطوقتها بذراعي وأنا أقلدها:

- صحين ياحتحورتي الجميلة.

- تصورت وأنا أغني أني سيدة الأوشام السبعة..

وقفنا لدقائق متلاصقين نتابع مياه النيل التي تتهادى حتى تصل إلى البحر حيث نقف ثم تسلقنا الصخور بحذر وجلسنا عليها نتأمل مراكب الصيد وهي تعبر الخط الفاصل بين النهر والبحر، والصيادين على الشاطئ الآخر.

- ماء النهر عذب وماء البحر مالح؟

- نعم.

- هل نستطيع أن نتذوق الماءين؟

طريقتها الساذجة في طرح الأسئلة تملؤني بهجة وسعادة. انتفضتُ وجذبتها وأنا أقول:

- لم لا. هيا. سأمسك يدك حتى لا تسقطي في الماء.

ثم قلت مداعبا:

- بل ليتك تبتلين كلية.

فنظرت إليّ محذرة.

- إياك!

- لا تخافي.

كانت مياه النهر تصطدم برفق بأمواج البحر. اقتربنا أكثر مما تصورنا أنه ماء النهر. نزلت بجسدها وأنا ممسك بها وبلت إصبعها ثم رفعته إلى فمها وتذوقته. لوت رأسها نحوي وقالت:

– ياه! تبدو شاهقاً كتماثيل الفراعنة.

ابتسمت ثم نظرت إليها مستفسرا:

- هه؟

- لا أعرف. لست متأكدة. كأن به بعض الملوحة.
- ربما عندما تذوقين ماء البحر تدركين الفرق.
- لنرَ.

قفزنا بحذر على الصخور الملساء المائلة واتجهنا شمالا. حاولت أن تلمس المياه إلا إنها كانت بعيدة لارتفاع الصخور. نظرت إليّ بإحباط وقالت:

- لن أعرف طعمه. المياه بعيدة.
- ألا تعرفين طعم مياه البحر؟
- طبعا. لكن هنا.
- إذن انتظري.

جلستُ على الصخرة المائلة. ونزلت وأنا أتلمس مكانا غير منزلق فانحنيت حتى طلت الماء. ملأت قبضة يدي منه وبحرص بدأت في الرجوع إليها. لكن الماء كله تسرب من يدي قبل أن أصل إليها. أمسكتْ يدي وقربتها لفمها ثم لمست بطرف لسانها أناملي. عبست قليلا وقالت:

- آه. هذا مالح فعلا. يوجد فرق.

كنت أشعر بطرف لسانها وشفتيها وهي لا تزال ممسكة بيدي بكلتا كفيها. قشعريرة مرت بجسدي. لم تحس بها. سحبتُ يدي وجلست جوارها وأنا صامت. لامس كتفي كتفها فلففت ساعدي حول وسطها وضممتها إليّ، وكعادتها لم تمانع. كنت قد مللت مداعباتي "المحترمة" ولم أعد ألمسها على الإطلاق، لكن هذه الهالة التي تغلفها وتأسرني وكأنها المرأة العنكبوت وقد خرجت من الأساطير تقتنص ضحيتها التالية، هذه الهالة ككل شيء يتبعها توحي بوعد غائم. اقتربت أكثر وغمست أنفي في شعرها. تحركتْ قليلا وكأن أنفي يدغدغها. لثمت خدها وأخذت الشمس تزيد من لهيبي وتذكيه. أبعدتْ ثغرها عني قليلا لكنها ظلت في حضني وساعدي الأيمن ملتف حولها ويدي تلمس منبت ثديها. سكنت فلم أتحرك. عاد لي التفكير في

معنى هذا كله. وقبل أن أتكلم تصاعد صياح المراكبية يحيّون بعضهم، هؤلاء الآتون من البحر وأولئك الآتون من النهر.

أفقت على صوتها تقول:

- ماذا؟ لماذا تنظر إليّ هكذا؟

بقيت صامتا. فأكملت:

- أعلم أنك قد تضايقت لأني أبعدت فمي. لا أعرف ماذا أقول لك. أنا أحبك ولكن ليس بطريقتك. لا أعرف. أنت بالنسبة لي الملاذ، الملجأ. كنبة كبيرة أريح جسدي عليها وروحي فيها. أشتكي لها همي. آسفة في التعبير عن الكنبة. لكن أنت بالنسبة لي الحضن الدافئ.

قلت وأنا أزداد حنوا واقترابا:

- كنبة كنبة. أنا موافق.

أكملت بعينين يملؤهما التعبير الصامت السخيف الذي أكرهه:

– أعرف أنك تحب أن تضمني إليك، وأشعر بوجودك طوال الوقت... ماذا أقول. أنا أحبك. لكن عندما تتحسسني أصابعك تنتهكني في الوقت ذاته. ربما كنت أنا غير مهيأة لذلك.

- مريم. أتعرفين لماذا أحب أن أضمك؟

نظرت إلي منتظرة أن أكمل بعينين يملأهما الحزن والوجل.

- كأني أتلمس شعري أنا، وجهي أنا، صدري أنا.

اكتمل الحزن في عينيها وقالت:

- ربما.

- ربما!

- أنا أحس كلامك. لكني انزعج منه. أعرف أنك لن تسمح لأحد أن يؤلمني بمن فيهم أنت. فأنا أعرف مقدار معزتي عندك وأعرف أنك عندما

لاحظت أني أكره التلامس لم تزد واحترمت شعوري. ولكن الأمر لا ينتهي أبدا.

ازدوجت فورا وتركت شبيهي متبلد الحس عديم الإحساس يكمل ويرجع معها إلى الإسكندرية مدينة الآلام المستترة.

❖

المخطوط الثالث

الشرح الأكيد لما خفي من كتاب أحوال العربيد

مقدمة بقلم العلامة البروفسور خاتشيك مظلميان حقق
عام 1918 في أمستردام، هولندا

وجدت هذه المخطوطة في مكتبة الإسكوريال وهي تتكون من صفحات متهرئة متفرقة تصف حال العربيد بعد افتراقه عن الغزالة المصرية التي تجلت له وأحبها بعد أن طاف البلاد فأصابه الهم والعلة. وكان قد قابلها في الصحراء فدلته على نبع ماء وشجرة. وعندما شربها من جفنة يده تحولت إلى إنسية وحكت له عن حكايتها وكيف أن الحتحورات قد حولنها إلى غزالة حتى تهرب من الأسيوي الخسيس، وظلت تنتظر إلى أن أتي من أرجعها إلى أصلها بعد أن دالت دولتها وآلهتها. وقد تأثر بها العربيد ووقع هواها في قلبه ونزلا من الجبل ورجعا للمحروسة بعد رحلة عناء. وهناك تزوجا لكنه في ليلة الزفاف أدرك اللعنة التي أصابتهما، وهذه بعض أحواله:

1

ذُكر أن المعلم رامز بن ميخائيل الإبراهيمي قال: رأيت العربيد واقفا ذات يوم أمام دكاني أغبر أشعث كأنه آت من حرب ضروس. فحزنت لرؤيته هكذا وقد كان مثل البدر يوم تمامه قبل أن تهلكه خطوب الأيام، فسألته عن حاله فالتفت إليّ لكنه كأنه لم يرني وصاح مأخوذا: حالي حال آدم في روز [1] ألستُ.

قيل هو الحال عند سماع آدم السؤال وتفكيره به ونطقه بالـ "بلى"، فهو على صراط الوجود خائفا من عواقب حرمانه من الوجود أو خوفه من الوجود ذاته. أي أنه في حال صدق لا مفر منه ولا نكران له، لكنه بإيجابه قد أثبت على نفسه ونسله الثواب والعقاب. والعقاب أدنى إذ هو إلا بشر ولكن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة..

والله أدرى وأعلم.

[1] (روز) بالفارسية تعني (يوم) و (روز ألستُ)هو يوم قبل الدهر أخذ فيه الله العهد من آدم ونسله قائلا: ألستُ بربكم ؟ قالوا: بلى

7

وعن الشيخ الصالح محمد بن رشاد الله الشُدسي أنه قال: كان يوم عيد والناس في فرح وسرور والبهجة تعم مصر بفيضان نهرها الأعظم. وقف العربيد متأملا انشراح البشر وشرد بعيدا ثم قال: حالي حال خلسة جعفر، ثم بكى حتى بلل الدمع مناكبه.

وقد شرحها بعض الشراح بقولهم. قصد حال جعفر مع العباسة أخت الرشيد حيث اختلس منها نظرة فكانت هي بدء ما أصاب البرامكة كلهم، حتى مقتل جعفر والعباسة. أي أن نظرة واحدة للحبيب قد تقتل الاثنين. واعترض آخرون على هذا التفسير وقيل إن الجعفر هو النهر الصغير، والخلسة هي الفرصة. فكان قصده أن النهر يختلس الفرصة للوصول إلى البحر فينسحق فيه ويمتزج.

11

وعن الشريف بن صفوت الهيكلي اللوندري قال: افتتنت لوقت بالعربيد فكنت أتابعه وأنادمه وأتقصى تقلباته. وذات ليلة كنت أسير خلفه في السوق فرأى جماعة من العيال تضحك على مخبول وتهزأ. فالتفت إلى قائلا: ظُلمَ هبنقة[2] فما أقرب حالي بحاله.

فقيل إن العربيد قد قصد بذلكَ هبنقةَ عندما علّمَ نفسه بعلامة حتى لا يلتبس أمره مع من يحب، فإن تم الوصال وضاعت العلامة فمن أين له أن يعرف من هو ومن الحبيب؟

---

[2] من أخبار الحمقى:
منهم هبنقة واسمه يزيد بن ثروان، ويقال ابن مروان، أحد بني قيس بن ثعلبة، ومن حمقه أنه جعل في عنقه قلادة من ودع وعظام وخزف وقال: أخشى أن أضل نفسي ففعلت ذلك لأعرفها به. فحولت القلادة ذات ليلة من عنقه لعنق أخيه فلما أصبح قال: يا أخي أنت أنا فمن أنا؟

وقال قائل بل إنه قصد أن حمق هبنقة لا حيلة له فيه، كما لا حيلة للعربيد في الحب. فمن اتهم ذلك اتهم هذا.

24

عن صاحب الطابية الموسيقيّ آدم بن رَند كتب: طُلبت لعزف العود في بيت العربيد في ليلة من ليالي الزفاف الأربعين، فلما ذهبت للدار ما عرفتها ورأيتها أطلالا أخنى عليها الدهر. دخلت فوجدت الحديقة قد ذبلت أشجارها وأتربت، فأهمني الأمر. فدخلت ووجدته جالسا في بهو الإيوان. قام وسلم علي وطلب مني أن أعزف من الألحان ما كنت أعزفه له من قبل. وعندما هممت بالأمر علا نشيجه وبلل الدمع قميصه وقام من قعدته وشق القميص وصاح صيحة هائلة قائلا: حالي حال الوتر. ثم خر منصرعا لكني ما تركته إلا بعد أن أفاق من غيبته فحممته وطيبته وألبسته حلة أخرى غير التي مزق.

كانت الكلمة غير مفهومة، فإن كانت مفتوحة التاء فهي وتر العود وإن كانت ساكنة فهي التفرد.

39

عن الشريفة لبني بنت مهند الخليلي قالت: كنت أدعو العربيد إلى قصري قبل أن يعرف ذات الأوشام السبعة وكنت أأتنس به وأنعم بصحبته. وبعدما شب الحريق رأيته فأنكرته وقد كان يهيم في الأسواق ويبيت في الحدائق، فأحزنني هذا فدعوته فما لبى ندائي وجدته ينظر إلى منديل كان بيدي ثم يصرخ عاليا ويقول: حالي حال قميص يوسف.

وقد شرحها البعض بقولهم إنه قصد قميص زليخة فهو حد الغواية، وقيل بل هو قميص يعقوب فهو عين الرؤية للمحروم.

54

وقال: حالي حال بَيْن.

شرحت على البين أي البعد أي أنه في موقف المبتعد غصبا. لكن اعترض عليها الشيخ الصالح العلامة اللغوي أحمد بن شيبا الخضري المغولي قائلا: كل يعلم أن البين هو البعد، لكن العربيد قصد (بين) التي هي كلمة من كلمات النظائر، إذ تدل على النقيضين. فإن قلت أنا بين شيئين فأنت بذلك تربط بينهما وفي نفس الوقت تفصلهما. ومعناها أن العربيد يرى حاله في الاثنين.

❖

63

قال الحكيم النطاسي الناجي بن إبراهيم آل راشد كنت أعود العربيد كل ليلة بعدما أصابته علل الدنيا ومزق جسده بغضا فيه بعد فراق محبوبة الفؤاد السيدة إيبسرون المصرية. وعندما كنت أُحمي النار بجانبه حتى أطهر جروحه اهتاج بمرأى النار وهبّ بجسده الضعيف صائحا منخرطا في دعائه: اللهم لبِّ ندائي واغرزني في وقيد النار.

❖

81

قالت النبيلة الأرنأووطية إيمان بنت عز الدين: كنت معتادة أن أستفتي العربيد في شؤون الحياة لما كنت أعرف عنه من فطنة وحنكة.

كتبت يوما إلى العربيد أسأله في مسألة ما تخص جارية من جواري، وما توقعت أن يرد جوابي لما سمعت من الناس عن أحواله بعد كارثة زواجه. لكنه أرسل لي كلمات لم أفهمها. كتب: ظلمت الحية.

قد فسر قوله هذا على أنه قصد حواء ودمجها في الحية التي قيل إنها سبب خسران آدم وما جنى على آدم سوى نفسه وليست الحية ولا حواء

❖

93

عن أحمد بن عبدالله المحرّمي قال: رأيت العربيد يقف أعلى ربوة بين الناس وينظر إلى السماء وينادي بأعلى صوت (زيادة..... زيادة). حتى التم حوله الناس وما فقهوا قوله. وظل يردد الكلمة حتى تراخى جسده فخر واقعا بين أقدام الخلق.

فسر البعض قوله نسبة إلى الآية 26 من سورة يونس: "للذين أحسنوا الحسنى وزيادة" فقالوا كان يتضرع إلى الله بالعفو والمغفرة. فعارض هذا القول الكثيرون وقالوا بل هو يستغفر الله عن خطاياه وحبه لذات الأوشام السبعة حيث قصد أن حبها كان متأخرا ونسأ وبذلك هو الزيادة كما في الآية "أيها الناس، إن النسئ زيادة في الكفر" وشبه النسئ وهى الأيام الزائدة عن التقويم بما زاد من مشاعره تجاه محبوبته ست الأوشام السبعة. وهو بذلك يستحق العقاب الذي ناله. ولله أعلم.

❖

98

قالـت العابـدة المتعبـدة هيلانـة بنـت أميـر البحـار حلمـي بـن محمـد الآستاني: سمعت العربيد يقول: الحروف كاملة : 28. أربعة عشر قمرية أربعة عشر شمسية . أربعة عشر نورانية وأربعة عشر ظلمانية. حالي لا قبل الاستواء على العرش ولا بعده.

❖

103

قال الأمير عبد القادر أبو الحمل اللاذقي: قابلت العربيد فقلت له: لا يصح أن تلقب بالعربيد بعد اليوم و أنت شيخ كبير السن عالي المقام؟ فنظر إلي ساخرا وقال: لا. تالله لا أكنى إلا به.

❖

105

قيل أنه قال: الحرف جسد والعدد روح. هي كتاب خط على عجل وحالي معه أمية نبي.

(الشرح غير مدون)

❖

106

كتب الساهر بن فريد الدين القيثاري لمحمد بن كمال بن الأمين أبو العافية: رأيت العربيد جالسا على شط النهر يخط بعصا بيده أرقاما وكلمات فلما اقتربت منه رفع رأسه وابتسم في وجهي وقال:

الضرب تكرار 3×4=12 . حالي حال الواحد.

❖

108

يروى أنه قال: حالي حال الألف: يتحد ويغير ويبدل لكنه أبدا ما ألف.

❖

لواحق الأحوال

ما لم يذكر في المخطوطة الأولى.

111

عن محمد بن صيام الأرضخاني أنه قال: نزل العربيد بعد فاجعته هائما في الأسواق مذهولا عن غيره من العباد ثم وقف وسط السوق وصرخ قائلا: حالي حال "قد". ثم ضحك عاليا حتى بانت نواجذه ثم استدار عائدا. وقد فسرها بعض العلماء بأن "قد" في اللغة العربية ترد حرفا أو اسما بمعنى (حسب) أو (كفى). فقيل إن حاله حال الكفاية، وقيل إنه قصد أن حاله حال من لا يعرف له تحديدا، ثم نفى علماء آخرون وقالوا إنه قصد الحرف (قد) لأنه إن دخل على الماضي يفيد التأكيد والتحقيق، وإن دخل على المضارع يفيد الشك واحتمال الوقوع. أي أنه (العربيد) قد قصد أن حاله بين الشتيتين. فلا هو باليقين متأكد ولا هو بالشك موجود. والله أعلم

❖

112

الحبيب أفق، وأنا دائر على مركزه متحرك إليه وما أصل.

❖

114

أنا المثلث داخلك يا الدائرة. مهما يربو ما فاض أبدا.

ثم خط [illegible] الأشكال.

من:

إلى

إلى

وهكذا.......

وما حلت إلا في عصر متأخر عندما فسرها علما العالم الجليل المهندس الحسن بن الأمين الشنشوري فكل دائرة داخلها مثلث أصغر منها. عندما زاد مثلثا صغيرا في منتصف كل ضلع من أضلاع المثلث بعد أن قسمه إلى ثلاثة أجزاء متساوية تزيد مساحة المثلث فإن تكررت هذه العملية إلى مالانهاية زادت مساحة المثلث الداخلي إلى مالانهاية دون أن تزيد مساحة الدائرة الخارجية التي تحتوي المثلث.

انتهى.

❖❖

تطول أيام لا تظهر بها ولا تهاتفني . يسوؤني هذا فأعند ولا أتصل بها. قط وفأر. أتأرجح بين شعوري بإهمالها لي ومعرفتي بل ويقيني أنها تحبني بشكل ما. قالت لي ذات يوم وكأنها تفرحني:

- أنا سعيدة فحياتي بدأت تنتظم. أمي لها 50% وعملي واهتمامي بمستقبلي له 30% وأنت لك العشرون الباقية.

تقول هذا وكأنها تكافئني. تقول إنني الراحة التي في حياتها.

ضحكت وارتضيت بالعشرين. نتقابل تقريبا ست مرات في الشهر، يعني عشرين في المئة من الثلاثين، دقيقة هي في حسابتها! لكن مع مرور الوقت لم أعد أعرف هل هذه النسبة ثابتة أم أنها تتحرك ضدي وليس معي. تسألني أحيانا لم لا أتصل بها، ثم تنشغل عني..

ذات مرة اختفت ولم يعد هاتفها المحمول متاحا لمدة أسبوع كامل. لم يحدث شيء يستدعى هذا الاختفاء، فكدت أجن. ماذا حدث لها. تجاسرت وذهبت إلى منزلها في الشوارع الداخلية من "ونجيت". وقفت أمام منزلها عليّ أراها، لكن ... الشباك لا يفتح. بعد يومين وجدت غسيلا منشورا منه بينه ميزت بلوزتها السماوية التي أعرفها جيدا. إذن هي موجودة لكنها لا ترد. صعدت السلالم المتهالكة وضغطت على الجرس وأنا لا أعرف من سيفتح الباب. فكرت إن فتحت هي الباب سأتركها وأنزل وسأتشاجر معها فيما بعد. فتح الباب بحرص وأطلت منه أمها نصف إطلالة. اعتذرت وقلت بثقة: هل الآنسة مريم موجودة؟ لا يا بني. هي في الشغل ؟ ثم بريبة: من أنت؟ أنا من المحل المجاور لمكان عملها، كما أني جاركما هنا في المنطقة. وقد سألتني عن محمول لم يكن لدينا. المحمول موجود وأخاف أن يباع لشخص آخر. قالت بشكل بارد: هي مع فريق عملها في مكان ما في الصحراء. شكرتها وانصرفت سريعا وأنا أكاد أتعثر. أعرف أنها ستغضب غضبها المكتوم مما فعلت، لكن على الأقل هي بخير. لما اتصلت بعد أسبوع قالت: آسفة سرق المحمول مني. فقلت معاتبا وأنا أكره إذعاني لها: ألم تجدي أي طريقة لتكلميني؟ قالت: انشغلت تماما في الدير الذي نعمل به، إنه رائع! ثم منفعلة : الحمد لله أنك قلت لأمي أنك تحضر لي محمولا جديدا حتى تبرر سؤالك عني فقد علمت بسرقة المحمول. أتعرف، لقد قالت أنك رجل وسيم. سكتُّ سكت. أ لاتفهم كم تؤلمني!

❖

تهملني كالعادة لكن بدون أن يسرق هاتفها هذه المرة. ينهار عنادي سريعا وأتصل بها كي ألومها فتقول لي:

- أنا سعيدة ، أحس أني موجودة بجد. أدرس الإنجليزية وأحسن من مهاراتي في الكومبيوتر. وأفكر في إعادة الثانوية العامة كي أدخل قسم آثار. تضحك وتقول: ربما أصبح طالبة عندك. ما رأيك؟

وبعد غياب آخر:

- أنت على بالي دائما، صدقني. لكن هذه طريقتي. مجرد أني أفكر في الاتصال بك أشعر أنني قد قمت بما يجب عليّ عمله. أنا هكذا منذ صغري، تعودت على عدم الاعتماد على أحد. أرجوك تفهم أن هذه هي طريقتي.

- ماذا لو عاملتك أنا بالمثل . فأنت تعلمين كم أتمنى أن أكون معك معظم الوقت. لكنك تعاندين إن لم أتصل ولا تتصلين أنت أبدا.

- هذا قدرك. ماذا أنت فاعل به..؟

نعم .ماذا أنا فاعل؟

❖

- أوحشتِني.

- نعم. أعرف.

...

تبلغني كل مرة بكارثة حدثت لها. فمرة أن والدها قد تزوج على أمها، ومرة أنه سجن في السعودية لدهسه طفل صغير و ينتظر أن يجمع المصريون له الدية المطلوبة. ثم مرة أخرى أن خالها سائق الأتوبيس قد أصيبَ في حادث مروع على طريق مصر – ليبيا، ثم بعدها بعدة أيام تقول لي أنه قد توفي، وأنها ستذهب هي ووالدتها إلى قريتهما للعزاء، ثم ... والدتها قد أغمى عليها وشخصت حالتها ببداية فشل كلوي ...، كلما تغيب عني تحكي قصة جديدة وأصدقها! لكني كنت أشعر عندما تتحدث عنهم بمدى ما تحمله من جفاء وعزلة، ليس لأنانية فيها، بل للعالم الخاص الذي تعيش فيه، لم يمسها سجن أبيها أو موت خالها، وكان تعليقها الوحيد على مرض والدتها: تسألني :

- معنى هذا أن عمرها قصير. صح؟

سألتني وكأنها تؤكد واقعا على الرغم من قلقها. أهو إيمان قوي أم سذاجة محتمة، أم كبرياء وتباعد. لم أعد أعرف.

تقول لي بلا مناسبة : أكره أن أعتمد علي أي شخص ولكنك تجعلني أعتمد عليك.

لم تظنني قويا، أعرف أنني كنبتها المريحة . ولكنها تريدها كنبة متلبدة الحس.. مثلها!؟

❖

تنظر إليّ نظرتها المحيرة:

- فؤاد تقدم وطلبني من أمي.
- آه، مبروك.

- فؤاد طيب ويحبني، وأنا كذلك، وأمي معجبة به.

أصبحت مقابلاتنا لا تتعدى مشوار توصيلها أحيانا إلى مكتب البعثة في لوران قبل أو بعد الدوام.

❖

- ستتزوجين وتصبحين بالنسبة لي امرأة متزوجة إذن!
- أريد أن يكون لي بنتان. أظن أنهما ستكونان بالنسبة لك فرخة بكشك.

تضحك. وأرتعب أنا. لم أرد أن أجرحها: أنا لا أحب الأطفال لكن ربما.

تذكرني بنسبتي المئوية، وأن العمل بدأ يستحوذ على نسبة من الخمسين الخاصة بأمها، فأفهم أنها تقصد فؤاد . أسخر من نفسي قائلا أنني أصبحت أفضل من الخوارزمي في الحساب.

ترجوني أن أزورها في الموقع في وادي النطرون.

- كدنا أن ننتهي منه. دير السوريان رائع. والمكان هادئ جدا عدا أيام الزيارة. سيعجبك المكان وسكينة الرهبان.

ثم تكرر ما قالته لي من قبل وكأنها قد نسيت أنها وقفت تغني على شط النيل، فتذكرني بهانز الباحث الألماني في التراتيل القبطية وأصولها المصرية القديمة، وعن الأوشام السبعة...

– أرجوك تعال، ولو من أجل التعرف عليه.

- قد زرته من قبل.

- لكنك لم تر الترميم الجديد؟

أقول لها عكس نيتي:

- سآتي دون شك.

- سريعا قبل أن نغادر الموقع.

ورغم عدم جديتي في وعدي إلا أنها تهف على روحي كثيرا لدرجة تتعب القلب وتؤرق الروح فأقرر أن أزورها. أخذت السيارة إلى الطريق الصحراوي، صاحبتني شادية و"آه يا اسمراني اللون" حتى وصلت إلى أول الطريق المؤدي للأديرة الثلاثة في وادي النطرون. رحبت بي آفا وكلها مغطاة بطبقات من الجير والعفرة. تكلمت بحماس عن كيفية الكشف عن الطبقات القديمة على جدران الدير بعد إزالة الترميمات الجيرية الرديئة التي كانت تغطي الجدران، وكم بدت الرسومات القديمة جميلة بألوانها الأصلية. وشاهدت الباب الخشبي العجيب بصلبانه المختلفة الأشكال، كل شكل يتنبأ بحقبة تاريخية ستمر بها مصر. دارت عيناي في المكان بحثا عن مريم. سألت آفا عنها. فقالت:

- آه مريم. بنت رائعة جدا. مجتهدة وجادة. وعلى فكرة هي تتكلم عنك كثيرا وتتيه فخرا باهتمامك بها، وهي تستحق هذا الاهتمام فعلا.

- أين هي الآن؟ أأستطيع أن أراها؟

- عجبا أولا تدري ؟ أنها في أجازه هي وفؤاد لأنهما يُحَضِّران لزواجهما !

طبيعي جدا.

الرجوع مع فيروز و"أهواه بلا أمل". وفي الغيم كانت مريم تنام جواري في شرنقة من ألياف زجاجية.

كلما ألمح هاتفي المحمول أو أتحسس ذبذبته في جيبي أفكر في زيارتها فأركب سيارتي وانطلق بها في الطريق الصحراوي. ثلاث مرات أصل حتى منطقة الأديرة أرجع دون أن أراها وكأن هناك شيئا يمنعني.

مر شهر ..

غرام تتصل كعادتها ، بل لقد زاد معدل اتصالها حتى أصبحت تتكلم مرتين في اليوم الواحد.

- الحمد لله أنك أنت من يدفع فاتورة المحمول. إذا لم تحبني سأقتلك وإن أحببتني سأفلسك. تستأهل يا حبي. هناك خبر . بعد غد سأكون في الضفة. سأدخل بجواز سفري الإنجليزي. وإن استطعت سأحاول الوصول لغزة. فصائل الفلسطينيين تتحارب يا حلاوة.

لن تنسى السياسة أبدا ولن تمل الحب أبدا. هذه هي.

- أخبرني شريف بأنه ستكون هناك مظاهرة كبيرة في القاهرة. هو سيشترك بها. سيكون فيها ممثلون لكل قوى العمل السياسي. هل تستطيع أن تشارك فيها؟ أعرف انك لا تحب هذه الأشكال من التعبير ولا تثق بها. لكن اشترك فيها من أجلي على الأقل. أنا أطلب منك هذا.

- سأذهب إن استطعت.

- لن ترهق على الإطلاق ولن تقوم بأي شيء فهي مظاهرة صامتة ستبدأ من أمام...

قاطعتها قائلا:

- اتصلي بي قبلها بيوم. تعلمين كم أسهو. سأنتظر مكالمتك.

- أوكيه حبيبي.

وفعلا تتصل لتذكرني وأذهب لأجل خاطرها، وفي منتصف الطريق الصحراوي أمر على طواحين الهواء الطويلة البيضاء المتناثرة على طول الطريق. تدور وتدور، لا تيأس ولا تمل. أعتب على مريم عدم اتصالها بي، و أتعجب من اتصال غرام الدائم. ألا تشعر مريم بنفس الشعور، نعم أنا أحب غرام ولكن إن لم تتصل يوميا لا يشغلني الأمر، وإن اتصلت بها يكون من أجل خاطرها. أسخر من نفسي وأقول أني أريد مريم غرام ، وربما أريد غرام مريم . لا يهم. لأذهب إلى المظاهرة لأجل غرام، وليت الأمر ينتهي كما انتهى ب " فهمي بن سي السيد".

وعند مدخل وادي النطرون أنحرف يمينا بالسيارة فأجد نفسي باتجاه الدير. أقف تحت أسواره العالية ولا أعبر البوابة. أضغط رقمها على المحمول:

- آلو.
- ماذا تريدين؟ أتودين أن ننهي العلاقة. إذن قولي.
- نعم. ماذا تريد أنت.
- فلننهها إذن.
- كما تريد.
- أنا خارج الدير. اخرجي لي.
- عندي عمل لا أستطيع أن أتركه.
- هكذا.
- نعم.
- إذن نتقابل غدا للمرة الأخيرة، على الأقل ننهيها بطريقة لائقة. سأمر عليك بالبيت الساعة السابعة مساء. هل تكونين قد انتهيت من عملك؟
- نعم.

- غدا إذن.

❖

أتخيل سيناريوهات مختلفة للقاء قطع العلاقة. لكن يغشاني مشهد حلميّ وهي تعود معي إلى البيت وتدعني أحتضنها ثم تبيت بجانبي ولو لليلة واحدة. آه، لو تفهم. لن ألمسها. فقط أريد أن أكون بجوارها، أملأ كياني بوجودها وقربها. كل مرة كنت أودعها كنت أسألها هل يأتي اليوم الذي تغفين فيه عندي مثل المرة الأولى.؟

هو الموت عينه وفي نفس الوقت هو الراحة الأبدية . قفلت راجعا إلى الإسكندرية.

...

نزلتْ والغضب بادٍ على محياها ولكن بنفس طبيعتها الهادئة. جلست بجواري دون أن تتكلم. انطلقت بالسيارة إلى بحري كالعادة.

- أين تريدين أن نذهب. أعتقد أنه علينا أن نحتفل بالنهاية. فلنجلس في مكان تختارينه أنت!

- لا أرغب في الجلوس في أي مكان.

- كما تريدين.

ركنت السيارة نتأمل الميناء الشرقية.

ذابت مشاعر التجلد التي كنت أظن أني أسيطر بها على نفسي. فاختلج صوتي برقة غصبا عني:

- مالك؟

وإذا بها تنطلق بعنف وعيناها تطفحان بالكراهية . لم أصدق ما تقول:

- أكره اليوم الذي تعرفت فيه عليك. أنت أربكت لي حياتي.

- أنا؟!

- كل عدة أيام تختفي ثم تقول أنك تتألم وأني لا أفهم . كل مرة تبدو وكأنك تريد بتر هذه العلاقة. ثم هذه المرة ستة أسابيع وكأني غير موجودة في هذه الدنيا. أنت تدمر حياتي.

- أنا.

- نعم . أنت . أنت لم تعد تهتم. ستة أسابيع ولا تسأل عني. ثم بكل بساطة تتصل وتقول أريد أن أنهي الموضوع.

- لماذا لم تتصلي أنت.

لم تسمعني وأكملت:

- كيف تقول أنك تهتم بي ثم لا تهتم.

- نفس الكلام موجه إليك.

- أنت لا تدري كم تجرحني. أنا نفسي فوجئت أني أستطيع ألا أراك طوال هذه المدة. كيف لي أن أجد نفسي قادرة على عدم رؤيتك لمدة طويلة هكذا. ولو لم تتصل فلم أكن سأتصل أبدا. أنت لا تحتمل. أنت قاسٍ معي.

- أنا ؟

- نعم. نعم قاسٍ.

- كيف؟

- أقول لك أني سأتزوج. فتقول لي ستصبحين مجرد امرأة متزوجة بالنسبة لي.

- وهذا هو الحقيقي. ألن تكوني امرأة متزوجة ؟

- أنت تفهم ماذا أعني . كأن اهتمامك بي سينتهي، وقد وضح هذا، أنا انتهيت بالنسبة إليك.

- هل كنت تظنين أن هذا سيسعدني؟

- (الحبيب قبل الحب). أتذكر ؟ أنت أقنعتني بهذا. وكنت تشرح لي أن على المحب أن يهتم بالمحبوب أكثر من الحب نفسه. لأن الحب يشمل الطرفين لكن من يحب صدقا لا يأبه إلا بالمحبوب.

أكملت :

- ألم يكن هذا رأيك ؟ المحبوب قبل الحب. ماذا حدث . سته أسابيع دون أن تهتم. وكأني لست موجودة على الإطلاق! أنا لا استطيع أن أرتبط بك. أنت تعلم هذا. ومن أول الأمر. أم أنك كنت تخدعني؟

أفكر هل كنت فعلا أزيف مشاعري تجاهها أم كنت صادقا.

- ثم زدت الأمر بلاء عندما قلت لك : أظن أنكَ سوف تحب أولادي جدا فأفاجأ بأنك تقول لا لن تحبهم. تقول أنك تحبني أنا فقط. ولكن أليسوا مني . يجب أن تحبهم.

- وهل كان يجب على أن أكذب عليك؟

فأشاحت بيدها وهي تقول:

- أية قسوة هذه .

نعم المحبوب قبل الحب. عندما يصبح هو كل الدنيا. كامل. دائرة مغلقة لانهائية. مثل كون أينشتين الكامل غير المحدود.

نعم إذا كنت سأحب من تحبهم، من أجلها سأحب زوجها ، أمها، بنت خالتها، أبوها، بنت عم امرأة خال جدها، وبالأولى سأحب أولادها.. لكن كيف أفهمها أن كل هؤلاء ليسوا هي. ثم أن مسألة الأولاد هذه شائكة جدا بالنسبة لي.

أقول بتأثر كاذب:

- لكن ألا ترين أني أنا نفسي بلا أولاد . أنت التي لم تفهمي الأمر. ولم تنظري إلا من وجه نظرك أنت. أنا اخترت ألا يكون لي أولاد. وأنت تعلمين هذا. كم تكلمنا في هذا الموضوع؟

صمتت تحاول الفهم. ثم انفعلت مرة واحدة وقالت:

- أنا لا أحبك يا أخي. لا أريدك. كما أني لا أحترمك.

كانت هذه هي الطامة الكبرى. الاحترام. رأيت نفسي في عينيها الكارهتين: رجل شائب متحرش ببنت صغيرة تحت أي شعار: حب أفلاطوني، غزل عفيف. بلاوي صوفية أوهام جسدية. إنسان مخرف. رأيت نفسي في كل المرات التي كنت احتضنها فيها وهي ثابتة ميتة تحت يدي. ولكن ألم تكن مرتاحة. نعم أعترف: كم مرة أنزلت يدي من عليها، كم مرة أبعدتني عنها بلطف.

كلامي لا معنى له لعقلها الصغير وربما كان هو الحقيقة. في نفس الوقت مرت علي كل اللحظات الجميلة التي كانت معي وواضح أنها سعيدة. لكن كيف لم تفهم؟ كيف لا تفهم؟ وكيف لا تفهم أنت يا صاحب العصمة؟

قلت لها بهدوء وقد أدركت أن لا فائدة؛ قد فسدت العلاقة تماما واعتراها البطلان وتذكرت مستعيدا نظرة الكراهية الفظيعة التي رأيتها في عينيها منذ لحظات:

- انتهى الأمر. طالما وصلنا إلى نقطة أنك لا تحترمينني. انتهي الأمر.

وبدأت في تشغيل السيارة. وأكملت بصوت كظيم:

- على العموم أنا آسف. أنت تعلمين كم أحبك.

ثم صادقا:

- لكن أقول لك إني كنت أفكر كيف يمكن مساعدتك أنت وفؤاد على الزواج. كنت أبحث لكما عن شقة صغيرة مناسبة وتكون هدية مني لكما.

بدأت في التحرك بالسيارة، إلا أنها قالت فجأة.

- انتظر.

ارتعش أمل طفيف في قلبي. وأوقفت السيارة:

- دعني أنا أقود.

ازداد الأمل. هي بالتأكيد تقصد أني مازلت كما أنا بالنسبة لها.

نزلت من السيارة وتبادلنا الأماكن. وما إن ركبت حتى أخرجت من شنطتها باقة ورد صغيرة ورقيقة لم أكن قد لمحتها معها وقالت :

- هذه لك. كنت أعرف أني رغم كل ما قلته لك إلا أني لا أستطيع أن أستغنى عنك أبدا. ثم اليوم عيد الحب، ألم تلاحظ. كل فريق العمل عندما رجعنا من الدير إلى الإسكندرية اشترى ورودا . أنا اشتريت هذه لك.

ثم أكملت ضاحكة :

- لم يكن معي سوى ما يكفي هذه الورود القليلة. كنت آتية وأنا غاضبة منك لكن كنت على استعداد للتصالح ولم أكن سأقول أي شيء مما سمعت. لكنك صممتَ أن تعرف ما بي. ويمكن كذا أحسن.

- لكن أن يصل بك الأمر أن تقولي إنك لا تحترميننى . كيف بالله عليك؟

- أنا لم أقل هذا.

- لا لقد قلت.

- أنا آسفة، إن كنت قد قلت. عمرى ما تصورت أني سأحتد على أي شخص هكذا وطبعا بالذات أنت. أنت بالنسبة لي وشم حتى لو تركتك أو تركتني ستكون قد وشمت روحي للأبد.

- أرجو ذلك.

في لحظة شككت أن الورود ليست لي أنا بل لفؤاد لكن قلبي كذبني. إن لم تكن تريد أن تعطينيها لم تكن لتتردد. تقبع هذه الزهور في مزهرية على مكتبي، جفت كلها لكنها للعجب تحتفظ بألوانها الجميلة.

❖

ما معنى الحب؟ أفكر في هذا وأنا أستمع لصوت غرام في الهاتف وهي تعاتبني:

- لم تذهب للمظاهرة.
- لا.
- لم؟
- انشغلت.
- كنت أريدك أن تشارك فيها لأجلي أنا.
- آسف. أنت تعلمين جيدا أني لا أحب هذا ولا أهواه.

وصلتني نبرات حزن وهي تكمل:

- دخلت الضفة بجواز السفر الإنجليزي. أشعر أن الإنجليز هم السبب الرئيس في مشاكل المنطقة كلها. وأمي لا ذنب لها.

- غرام. ما بك؟
- لا أعرف.
- أتبكين حبيبتي؟
- لا. لكن كنت أريد أن..
- آسف لأني لم أحقق لك ما طلبت.

- لا عليك.

ثم تصنعت الضحك وقالت:

- ما أخبارك مع مريم؟

لماذا تفشل علاقات الناس بسهوله هكذا؟ أكانت الثمرة المحرمة هي التوافق.

- ستتزوج.

- حقا!

- نعم.

- مِن مَن ؟ إياك تكون أنت!

- لا. زميل لها في العمل. غرام ماذا افعل؟

خطرت في بالي كلمات: غير أن أقتلها.

قالت ببساطة:

- اشتر لها فستان الفرح.

ثم أكلمت ضاحكة:

- وقميص نوم. وإن أردت أرسل لك الفستان والقميص من هنا، هدية لها.

فقلت ردا عليها وبتهكم على نفسي:

- عسى أن يقتلني فؤاد.

- فؤاد؟ آه خطيبها. لا تشغل بالك العالم يتغير.

- حقا؟

❖

نفذت ما قالته غرام.

أقول لمريم:

- متى ستشترين فستان الزفاف؟

- إن ميزانيتنا لا تسمح. سوف أؤجر واحدا مثل الأخريات.

- فستان الزفاف عليّ.

ولم أجرؤ أن أقول لها وقمصان النوم أيضا. وافقت بسعادة. ونزلنا معا نبحث عن الفستان. ثم مللت أنا كل هذا وذهبت هي تكمل البحث عنه. واشتريته لها فعلا. ومعه طقم كامل للنوم من محل (پيلو توك) المولعة به غرام. وتذكرت سخريتي من غرام وولعها بالملابس المثيرة.

أقابلها وأهْدِيها الطقم. تفتحه بحرص. وتبتسم ابتسامتها الداخلية ولا يبدو عليها أي تأثر كالعادة، ثم تقترب مني فجأة وتقبلني قبلة خفيفة على خدي. شعرت بدفء شفتيها للحظة. وبرغم سرعتها إلا أن شفتيها التصقت بخدي كما تلتصق الشفاه بقطعة بسكويت للحظة. كانت قبلة حميمية طارت سريعا مثل الكحول.

- ماذا ستقولين لفؤاد؟

- كلمته عنك من قبل. لكن سأقول أن هذه الأشياء هدية من زوجتك.

- متى الزفاف؟

- يُحَضِّر فؤاد قدر استطاعته. هو يتيم ومقطوع من شجرة. أنت ستكون سندنا نحن الاثنين.

وهل أنا سند نفسي يا حلوتي؟

❖

- سؤال وتجاوبني عليه بصدق.
- نعم.
- هل أنت نادم على معرفتي ؟

سكتُ للحظة فقالت:

- واضح. من سكوتك.

فأقول صادقا :

- لا. لست بنادم على الإطلاق. لكني متألم دون شك. ألم مبهم سخيف. أنا أحترمك للغاية وأقدرك جدا وأحبك أحبك وأنت تعلمين لكني لست نادما، إنه الألم.... يقتلني في صفوك وغضبك.

❖

أقابل ابنة خالتها وهي فتاة في مثل عمرها تماما تدرس في المعهد الفني التجاري بالشاطبي. مررنا عليها أنا ومريم كي تستشيرها مريم في أمر قطعة موبيليا رآها فؤاد وأرادت أن تأخذ رأيي ورأيها. وبعد أن أوصلناها إلى المنزل قالت لي مريم أن ابنة خالتها قد أعجبت بي جدا وتراني رجلا لطيفا وشيك لكنها كانت محتارة بماذا تناديني: أونكل أو دكتور أو أستاذ.

- تصور ! قلت لها أنت بلهاء أم ماذا؟ طبعا نادِيه مثلي باسمه.

ابتسمت وأنا أسخر من نفسي وأقول في سري: أفضل ما كانت تناديك بلقب يا حاج أو حتى يا بركة ...وحلاوتها أم حسن.

❖

لاحظت أنها أصبحت بمزاج متقلب وإن لم تغير من طريقتها في التعبير عن الأشياء. ثم ربطت بين مزاجها سريع التغير مع علاقتها بفؤاد. فإن رضي رضت وإن تعكر تعكرت. تحكي لي وتشتكي. وأنا استمع.

وهكذا وهكذا وهكذا...

❖

وسط هذه المعمعة وصلني من الأستاذ بولقاسم بريد إلكتروني يسأل فيه عن أخبار مشروع العربيد وعن تطوراته. وبشرني كاتبا أنه راسل أستاذة بالمغرب متخصصة في المخطوطات المشرقية والمغربية وقد كتبت له أنه قد وصل إلى سمعها وجود مخطوط باسم (مآل العربيد) في جنوب المغرب لكنها لا تعرف مكانه بالتحديد وأنها سوف تتقصى مصدره. ثم وصلتني رسالة أخرى بأنه قد تعذر الوصول إلى المخطوط لأن شيئا مبهما قد حدث لها. وفي نهاية الرسالة سألني على لسانها:

هل يريد حقا أن يحصل عليه؟

ما هذا السؤال السخيف!

رسالة ثالثة كتب فيها الدكتور بولقاسم أن د. غزالة هاتفته أمس وقالت له: يقولون أنه مخطوط مسحور لا يصل إليه إلا من يناديه المخطوط. ولا يقرأه سوى من أراد له العربيد هذا. ثم أضافت ساخرة أنها لا

تصدق هذا الكلام، لكن من يعش حياته بين المخطوطات القديمة يجد العجب.

قمت وتركت الرسالة مفتوحة. طبعا أريد أن أرى هذا المخطوط. مآل العربيد ؟ أيكون هذا آخر جزء في سيرة عربيدي المحير؟

غرام بعيدة وما نسيتها. مريم قريبة قرب الموت. بل هي الموت. كنت أظن أني قد شفيت من هذه المشاعر البلهاء. لكن مريم، حلم الاحتواء الدافئ، تتداعى صورها في مخيلتي بلا ترتيب. مريم في حضني في تلك العصرية الجميلة وهي تدخن سيجارتها وهي تتمايل عارية في ضوء الشمس، قبل أن تكره التدخين. على البحر بشعرها المتهدل على جذعها المائل منهمكة في خط حروفها الهيروغليفية على لوحة من الرمال. قبلتها وهي تشكرني على قميص النوم. هي الآن في حضنه، عاعا يا حمار. عا عا.

❖

كانت البعثة البولندية قد اكتشفت مقبرة جديدة في مارينا مغطاة بلوحات جميلة من الفرسك. أغلقت المقبرة بعد الاكتشاف مباشرة لأن تصريح البعثة كان قد انتهى ولم تسنح لهم المدة المرصودة للبدء في ترميم اللوحات. وعندما عاودت البعثة عملها بعد تجديد التصريح ألحت عليّ مريم أن أحضر معهم فتح المقبرة بعد استئذان آفا. كان يوم سبت والجو صحو مشمس، لا حار ولا بارد. ركبت البعثة السيارتين المخصصتين لها. وركب فؤاد ومريم معي في السيارة . أنا أحب طريق الساحل الشمالي ولكني أتحسر على فقدان تلك المساحات اللانهائية من شجر التين الشوكي المفروشة بين الطريق و البحر

اللازوردي. تذكرت غرام في رحلة الكلية إلى شاطئ باغوش في مطروح قبل أن نتزوج.

لا حيلة لي مع مريم وفؤاد. أرتاح لشكل علاقتهما وأشعر أن هذه هي العلاقة الطبيعية التي يجب أن تنمو. أنا أيضا أرى أنه يحبها. لا يعجبني ولا ينفرني. فهو رغم اجتهاده عادي للغاية.

وصلنا ضحىً ، لم نتكلم كثيرا في السيارة . كانت مريم تدندن أغنية شبابية جديدة اشتهرت جدا في وقت قصير :

(حنية قلبك، حبك، حضنك

نظرة عينك ، لمسة إيدك

وده اللي خلّى قلبي ارتاحلك والله)

نفس الشعور المبهم .ما الذي أريد؟ قالت لي منذ يومين: أنا أفعل أي شيء لأجلك، عمري كله لن أغضب منك أبدا. ربما نتيجة لتأثير علاقتها بفؤاد ؟ شعور كئيب أقرب لزنا المحارم. انتابتني موجة عاتية من الكره لغرام. صادفتنا لجنة بوليس. أطل الشرطي وطلب الرخص. أعطيتها له. وانتظرت لدقائق حتى أخذت الوصل. قالت لي مريم لائمة:

- هل تعديت السرعة؟

التفتّ إليها حيث تجلس في المقعد الخلفي وقلت :

- يبدو ذلك. نعم . لقد تعديت الحدود.

فقال فؤاد :

- لم أشعر أنك تقود أسرع من اللازم . السيارة ممتازة.

لم أعلق على كلامه سوى بابتسامة، لكن حقيقة أنا أشفق على فؤاد. هو بالنسبة لي شيء غير مهم على الإطلاق. مجرد صديق لها، خطيب ، عشيق ، زوج . تستوي الأشياء والمسميات، لكن منظرها كست بيت لن يستهويني أبدا. وأنا لا أحب الفرخة بالكشك. تذوقته بعد الحاح من غرام التي تحبه بشده. طعمه شهي فعلا لكني لم أحبه أبدا.

مغارة علي بابا التي ننزل إليها الآن تبدأ بباب سرداب بسيط، وسلالم غائصة إلى القاع . نزلت آفا وباقي أفراد الفريق مع فؤاد ومريم. تلكأت لثانية ثم هبطت إثرهم . بقينا للحظات صامتين منذهلين نتأمل روعة الفرسكو ولكن فجأة شهقت آفا وندت عنها صرخة، كان الفريق كله كأنه تجمد. امتدت يد مريم لا إراديا إلى يد فؤاد. لحظة خوف.

تمتمت آفا:

- تيار الهواء.

كانت الفرسك تتساقط لكنها تتساقط ببطء مرعب وتتقشر الطبقة الخارجية وتنهار وتتحول ركاما تحت كل حائط. وتضيع الصور إلى الأبد. تداعت مشاهد من فيلم روما فيلليني عندما حدث نفس الشيء خلال الحفر لعمل مترو انفاق روما حيث تلاشت الفرسكات الرائعة فور أن اقتحمتها تيار الهواء. كان مشهدا يأخذ بالألباب، وها هو يحدث أمامي حقيقة وليس على الشاشة. لكن الصور لم تكن تتلاشي وتختفي بسرعة مثل فيلم فيليني.

صاح فؤاد :

- الكاميرا يجب أن نلحق هذه الصور قبل أن تتساقط.

نزع يده من يد مريم وقفز السلالم قفزا حتى وصل إلى السيارة ليحضر الكاميرا. كانت آفا ممتقعة اللون شاحبة أكثر من شحوبها العادي، وتتمتم :

- كنت أعرف، كنت أعرف. قد أضعتها. كان يجب أن أكون أكثر حزما معهم.

رجع فؤاد وشعرت أن الكاميرا كان قد فات وقتها. خبطني بكتفه وهو ينزل مسرعا.

رأيت مريم وسط القبو وصورها تتساقط أمامي وتتحول إلى تراب.

تركت كل شيء وتحركت صوب السلالم وصعدت حتى واجهتني شمس الظهيرة والصحراء. امتداد الطريق حتى الإسكندرية كانت نفس اليافطة الصغيرة تتكرر: لا تنشغل بغير الطريق. لا تنشغل بغير الطريق. لا تنشغل بغير الطريق. دخلت الإسكندرية وأنا أفكر في عربيد عشق آباد الذي لم أعرف خاتمته.

❖

في رسالة الكترونية وصلتني من الدكتور بولقاسم من فرنسا، اقترح عليّ السفر إلى المغرب لمقابلة الدكتورة غزالة. شكرته واتفقت معه على المرور بباريس قبل ذهابي إلى المغرب. عرجت على شركة السياحة التي أتعامل معها وحجزت التذكرة.

هذا المخطوط يطلبني فعلا. أبلغت د. بولقاسم بتاريخ الوصول ومكان إقامتي. خلال الأيام السابقة للسفر لم أنشغل سوى بالتحضير والاستعداد بكل الملحوظات على كل مخطوط ونسخ المخطوطات كلها بما فيها المخطوط المزيف الذي كتبته مريم.

هاتفت غرام في مدريد.

- سأذهب إلى المغرب وسأتوقف في باريس.
- المغرب ؟لم ؟
- مخطوط جديد

سكتت.

- ألا تريد أن أمر عليك؟

- أريد أن أراكِ، طبعا . نحن أصدقاء أولا وأخيرا أليس كذلك؟

فقالت :

- سنقابلك هناك. شريف وأنا.

بادرتها قبل أن افكر:

- إلى اللقاء في باريس إذن.

- أراك هناك. سلام يا صاحبي.

طبعا. غرام . ذات الشعر الأحمر المشوش ونمشها المنعش. بعيدة بعيدة هي الأخرى.

في المطار أنتظر طائرتي المتجهة إلى باريس، أتصفح الجرائد بعدم اهتمام وأفر صور العرب المقتولين في العراق وفلسطين ولبنان. أبحث عن الكلمات المتقاطعة وقبل بدء التفكير في حلها أرى حظي اليوم. أقرأه مشتت البال وأنساه حتى قبل أن ينتهي السطر. أرجع لصور القتلى مرة أخرى. أضع الجرائد جواري وأحمل حقيبتي متجها إلى الطائرة عند سماعي لنداء الدخول. يرن محمولي رنة غرام فلا أرد وبعدها بلحظة رنة مريم. أضحك بصوت عال. ينظر إلي الواقفون في صف الانتظار بدهشة. أغلق المحمول.

غرام ؟

مريم ؟

في مقعدي المريح في الطائرة، أمعن التفكير في اقتراح مريم بكتابة الجزء المصري للمخطوط وانقيادي لها كلعبة. يلح التساؤل عن معنى التاريخ وما سطره الأولون، وما نسطره نحن وما نعيشه. هل تكون هذه المخطوطة

التي كتبناها نحن الاثنان لها أي بعد تاريخي فيما بعد؟ حريق آخر لمكتبة الإسكندرية ، بناء جديد ، العثور على هذه النسخة من المخطوطة المزيفة. الوصول.

ظلّتْ تسائِلُ بالمُتيّمِ ما به وَهْيَ التي فعلتْ به أفعالها

❖

تقابلنا ثلاثتنا في المطار كأننا زملاء في مدرسة واحدة وفرقتنا الطرق. أول لقاء بيننا بعد الطلاق. كأن ما كان بيننا منافسة على درجات مادة الجغرافية أو الفيزياء ثم فوجئنا أن الأستاذ قد ألغى الامتحان كله. صممت غرام أن تدعوني على الغذاء. قالت لي أنه مطعم شهير جدا صاحبه مصري من الإسكندرية، ويؤمه مشاهير باريس. لا بأس! اعتذر شريف عن الحضور لباقة منه. جلسنا نحتسي النبيذ صامتين صمت يليق بأصدقاء قدامى. لم أجد أي مشاعر سوء داخلي ناحيتها ولم أشعر بأي شعور سلبي منها. تحدثنا عن نشاطاتها البيئية والسياسية باهتمام زائف مني. حاولت أن أتذكرها وهي تتنهد وتتغنج بين ذراعي فكانت وهما كما القبلة التي سرقتها من زميلتي في الصف الابتدائي في الحمامات الداخلية، عتيقة بعيدة بها أثر طعم جميل، كما الصداقة التي نحتفي بها. سألتها ذوقيا وببعض الحرص عنها وعن علاقتها بشريف. قالت أن شريف بوجه عام طيب ومهذب ومتفهم والأهم أنه يكن لها شعورا جميلا و يحبها بصدق.

وضعت يدها على يدي وقالت:

- هو ليس عميق الشخصية بشكل كاف، لكن بساطته تكفيني. ربما نتزوج في القريب العاجل.

ثم أضافت:

- إذا لم يكن عندك مانع.

لم أتكلم، تطلعت إلى وجهها المغيم بسحب الحياة. ابتسمت ابتسامة من مكان سحيق.

أمسكت الكأس ورفعته تحية لها. رن هاتفي. كان د بولقاسم. حدد لي مكان مقابلة دكتورة غزالة في مطار الدار البيضاء. سألته ما شكلها؟ فقال ضاحكا: هي ستعرفك يا مصري. لا تقلق.

فأجبته ضاحكا: لست قلقا، فقط أريد أن أتصور شكل هذه الغزالة.

اصطخبت ضحكته وكرر: ستعرفك يا مصري.

أغلقت الخط. وجدت بعض الخمود في عيني غرام. ثم رفعت رأسها وسألت: من هي غزالة ؟

قلت لها: هي سيدة متخصصة في المخطوطات العربية.

فقالت: لقد غرقت في الماضي. ثم أضافت متهكمة أو ربما ستنقذك غزالة هانم. أو لالا غزالة.

أوصلت غرام بالتاكسي ثم أكملت لفندقي. رجعت مهموما ومنهكا. فتحت التلفاز وجدت المظاهرات التي لا تنتهي في بلاد العالم. دارت الصور من كل الكرة الأرضية. وجوه كظيمة وأطفال بؤساء. ظللت أحدق في الشاشة ولا أرى شيئا. أغلقت الجهاز وحاولت النوم إلا أن النوم جفاني. فوقفت أمام الشباك أنظر للظلام حولي حتى انجلي تدريجيا. أخذت حقيبتي ونزلت لبهو الفندق. وصلت إلى المطار يصاحبني صداع مبرح. طلبت فنجان قهوة مضاعف في الكافتيريا. رشفتها ببطء حتى أزف موعد طائرتي. في الطائرة غلبني النوم. ولم أصح إلا قبل هبوطها بقليل. تمت الإجراءات بسهولة. وخرجت إلى صالة الوصول. كنت أبحث بعيني عن الغزالة التي ستستقبلني. وجدتها من بعيد تلوح لي بيدها. كانت سمراء بشعر أسود

طويل ذي تموجات جامحة يغطي ربعها الأعلى. امرأة ثلاثينية قوية البنيان ورشيقة في نفس الوقت. ابتسمت لي وهي تقترب، حييتها سائلا:

- دكتورة غزالة؟

- أهلا بك. تفضل معي.

فسألتها كيف عرفتني:

فقالت:

- بيسر. من الصورة التي على كتابك (المخطوطات وأسطرة التاريخ).

تذكرت أن لي صورة على ظهر غلاف كتابي الأخير.

قلت : هل قرأت الكتاب؟

فقالت : أنا لا أفوت أي كتاب عن علم المخطوطات. وهو فرع نادر للأسف في المكتبة العربية.

- هل أعجبك؟

فقالت :

- حقيقة لم أجد فيه جديدا. لكن تناولك سهل وأسلوبك سلس.

شكرتها وإنْ لم يعجبني حكمها على الكتاب. لكني تقبلت رأيها لصراحتها. أوصلتني إلي الفندق.

- هل تريد أن تستريح قليلا؟

- لا بل أنا في حاجة شديدة إلى فنجان من القهوة. سأضع حقيبتي في الغرفة ثم أنزل فورا.

– إذن أنتظرك.

– اتفقنا.

وضعت الحقيبة وأخذت دشا سريعا انتشلني من الإرهاق والتعب. نزلت إليها في حديقة الفندق الذي بني على الطراز العربي المغربي. كانت تضع ساقا على ساق فبدت فتنتها، اقتربت منها ومع كل خطوة كانت صورتها تتشوش في مخيلتي وتتداخل. وتيقنت ساعتها أنها مزج عجيب من مريم وغرام رغم اختلافهما البين. هن كائن واحد قاس يقربك حتى الموت ويبعدك حتى الفناء.

طلبنا القهوة فجاءت رائعة تناسب المكان. تكلمنا كثيرا عن المخطوطات وأهميتها ثم وصلنا إلى مخطوطات العربيد التي أحوزها والتي حققتها. طلبت مني أن تقرأ المخطوطات. فأخرجت النسخ من الحقيبة ورتبتها ثم أخرجت منها مخطوطة مريم .ووضعت الأوراق أمامها غير أنها استوقفتها المخطوطة المزيفة وسألتني عنها. فقلت لها أنها مخطوط مزيف. كتبته إحدى تلميذاتي متخيلة حياة الأبطال في محاولة لاختلاق ماض مواز مغاير. نظرت إلى مليا ثم قالت:

- مثير !

ثم أردفت:

- يبدو أن أحوال هذا العربيد محيرة. قيل لي أن المخطوط يطلب من يريده، وها هو يملي إرادته على تلميذتك.. حاولت كثيرا العثور على المخطوط الذي يخبرنا عن مآل العربيد لكنني فشلت. أنا لا أصدق هذا الكلام ولكن بعد تحقيق العديد من المخطوطات ... تيقنت أنني لن أصل إليه.

فقلت لها بين الشك واليقين وقد اختلط الأمر علي، وقد استفزتني طريقتها في الضغط على نهاية الكلمات:

- معك حق. لكن أتصدقين هذا حقا؟

صمتت وحارت في الإجابة. خطف نظري بريق فص الخاتم الذي كانت تتحلى به. لم أجد دبلة زواج. فسألتها متناسيا أسلوب اللياقة :

- هل أنت مرتبطة؟

عبست واختلف شكل حاجبيها.

- أقصد هل أنت مخطوبة أو متزوجة.

فنفت بهزة بسيطة من رأسها.

ثم كررت السؤال:

- أنت تصدق أياً من هذا ؟

فقلت:

- كل شيء جائز.

فقالت باقتضاب:

- نعم وهذا هو المشكل.

تأملتها جيدا وأنا مغتاظ لأني لم أقتل مريم.

غرام تهجَر، مريم تقتَل، وهذه تغوى أو تغتصَب. الله الله . ما أجملَك!

- غدا سنبدأ السفر معا للوصول إلى البلدة الصغيرة التي قيل أن بها المخطوط في مسجدها القديم. أنا لم أصل لشيء من قبل ولكن قد تستطيع أنت.

كنت أحاول أن أتصورها عارية. شفافة إلا أن جوربها المشدود الداكن تحت جوبتها لم يعطني الفرصة بل موه العري المنتظر. حاولت مرة أخرى. سخف !

فقلت لها خروجا من سخافة تصوراتي:

- أي شيء مسل في هذه الليلة؟

قالت:

- في الفندق مساء توجد فرقة تغني موشحات أندلسية .

ضحكت وأضافت:

- ربما من عصر عربيدك.
- حقا!
- ألم تتكلم عن وهم التاريخ وأسطرته في كتابك.
- إذن سأنتظرك مساء لنتناول العشاء معا. هل يضايقك؟
- لا بل بالعكس.
- أراك مساء إذن.
- سلام.

لم يكن بي أي رغبة للفرجة على المدينة. يقتلني الإرهاق. رجعت لغرفتي دون أن أتغدى ورقدت في السرير، حاولت النوم لكنه جافاني رغم التعب. فتحت التليفزيون وجدت فيلما أسبانيّا لألمودوبار. (تكلم معها) Hable con ella.أعرف هذا الفيلم وأحبه خصوصا جزء الفيلم الداخلي الصامت الأبيض والأسود. الرجل وهو ينسخط فيصير صغيرا ضئيلا ويدخل رحم المرأة التي يحبها. جلست أحاول الانتباه لأتابع الفيلم ولكني انزلقت في نوم أقرب للغيبوبة. هببت من نومي مفزوعا. ونظرت إلى ساعتي فوجدتني قد نمت نصف ساعة فقط. اطمأن قلبي أن ميعاد العشاء لم يحن بعد. كان الفيلم قد انتهى. أغلقت الجهاز وحاولت أن أنام مرة أخرى لكنني فشلت. نهضت واتجهت للحمام لآخذ دشا آخرا. انتعشت قليلا لكني كالمخدر من التوتر والإرهاق. جلست في الشرفة المطلة على المحيط الرائع أتأمل جمال المشهد.

نزلت في الميعاد إلى صالة العشاء. دردشنا قليلا ونحن نتناول عشاءنا ونرتشف كؤوسنا. ثم بدأت الفرقة ذات الملبس الوطني المميز تعزف التواشيح بأسلوب مغربي مميز.

قَد كُنتُ أَرجو أَن تكونَ مُواصِلي فَأَسقَيتَني بِالبُعدِ فاتِحَةَ الرَعدِ

فَبِاللهِ بَرِّد ما بِقَلبي مِن الجَوى بِفاتِحَةِ الأَعرافِ مِن ريقِكَ الشَهدِ

مالت علي هامسة:

- هذا ابن سهل الأندلسي.

تفكرت في الكلام ومعناه. فاتحة سورة الأعراف. ألف لام ميم صاد.

لمعت الألوان الموشاة في الجلباب المغربي الأنيق الذي ترتديه د. غزالة. تابعت التقليمات الذهبية في الجلباب، تتلوى مع تلوي حركة جسدها تحته كأنهر تغرقها شمس مجنونة. تندفع منه أنوار ولألآت تتجه نحوى عند ركبتها الموضوعة على الساق الأخرى، فتنهمر فجأة كشلال نهر قديم. مررت بيدي عليه فأحسست بساقها تحته وكأني أمنع شلاله من الانهيار. نظرت إلى مستفسرة، ثم أمسكت يدي وأزاحتها بلطف. اعتذرت بسرعة لها، وأنا أتساءل ما الذي دهاني؟ ... زفت!

تلاعبت الأضواء مرة أخرى ودخلت مريم وحولها فراشات صفراء كثيرة. تقدمت ممسكة بباقة الورد التي أهدتني إياها بعد غضبتها العاصفة ثم وقفت وسط ساحة الرقص وبدأت ترقص رقصتها المتهادية الجميلة. دارت حول نفسها فتكثف فؤاد حولها وبدأ في تقبيلها برقة. ذابت ملابسهما وظلا يسبحان في عريهما.

- أأنت بخير؟

نظرت إلى غزالة مُسترجَعا من هلاوسي ومشاهدي الغرائبية. غزالة، ماذا تريدين مني؟ هل هو تأثير مخدر ما، أم الخمر أم ببساطة التعب؟ نعم يا غزالتي أنا تعبٌ جداً.

- نعم، أشكرك. أنا بخير. أنا فقط لم أنم جيدا ومرهق إثر السفر.

- ألا تريد أن ننهي السهرة؟
- لا. إطلاقا. أنا أريد أن نكملها.
- على راحتك. أنت ضيف عزيز.

التفت مرة أخرى لساحة الرقص. كانا قد اختفيا. ولم يبق منهما سوى فراشات صفراء متناثرة طائرة. أتخيل مريم في حضنه، أتخيلهما يتضاجعان فأجد أني أتصورهما كأني أشاهد فيلما بعيدا باردا، كأني أتلصص على مادة خام ميتة. ترى هل سيكون نفس الشعور لو شاهدتهما حقيقة؟

- لقد قرأتها كلها. معظمها تجميع توفيقي للشعر العربي ولا تحتوي على أصالة خاصة. ربما كانت المخطوطة المزيفة لتلميذتك هي أكثرها صدقا.

هززت كتفي وقلت:

- ربما. ولكن لا تنسي أن كثيرا من الكتب العربية القديمة تنتهج هذا الشكل وترصعها بأبيات من الشعر المشهور. فقد تجدين قصة في الأغاني للأصفهاني وتتكرر في مصارع العشاق بنفس اللفظ وهكذا. وهذه ظاهرة معروفة.
- متى تريد أن نبدأ رحلتنا؟ أريد أن أريك خريطة الطريق. سنذهب بسيارتي.

تذكرت يدي التي كانت منذ دقائق على ساقها. وأطل الملل كنصب لإله وثني عظيم. طلبت منها أن أتمم هذه الرحلة وحيدا. لم تعترض كثيرا وكأنها كانت تتوقع هذا مني. قالت:

- كأني كنت أعرف. هل تريد السيارة؟
- هل توجد مواصلات أخرى؟
- الباص. حتى آخر الخط.
- هذا أفضل.

أتت صباحا كي تودعني. نفس التاييز المحبوك الجميل والشعر المخملي والفم الممتلئ رغبة. أعطتني عدة أوراق وخرائط وأرجعت لي نسخ المخطوطات.

انقطع حديثها بطلب السائق للمسافرين بالركوب. تصافحنا. ابتسمت ببشاشة وقالت:

- الله معك.
- شكرا.
- أراك عندما تعود. سأنتظرك.

أشرتُ لها مودعا ودخلت الحافلة وبدأت رحلتي.

في الحافلة تابعت المشاهد متسليا ناسيا كل ما عداها. وفي مدينة أخيرة كان عليّ أن آخذ حافلة أخرى أكثر تهالكا وشعبية. كانت بالمدينة سوق كبيرة للإبل وسوق أخرى للبضائع من كل أفريقيا، سوق مبهجة بألوانها المتعددة .عجت الحافلة بالبشر. مررنا على أنهر صغيرة وأنهر تكاد تجف وقمم جبال عالية بثلوج باهرة ووديانا خضراء ثم صحاري ودودة ومنها لصحاري جافة قاسية . كانت الناس في الحافلة تتناقص كلما طال الخط حتى ندروا. وقفت الحافلة في نقط تفتيش كان عليّ أن أبرز جواز سفري عدة مرات حتى أني خمنت أننا قد عبرنا عدة حدود .

لم يبق سواي والسائق. سألني السائق بعد أن أوقف الحافلة في استراحة صغيرة أقرب لواحة وسط الصحراء تتناثر فيها بيوت بدائية مبنية بالطمي.

– ها قد وصلنا. إلى أين اتجاهك؟

فتحت الورقة التي أعطتني إياها غزالة وقلت : زرزورة.

رفع السائق رأسه ثم أعاد السؤال إلى أين ؟

رجعت للورقة كي أتأكد من الاسم .

- زرزورة. واحة زرزورة.

- لا أعرفها. لا توجد واحة هنا بهذا الاسم.

رجعت للورقة التي أعطتنيها غزالة . مررنا على عدة أماكن صحيحة. لا أظن أن الكتابة خاطئة.

حرت في الأمر فقلت له :

- إذن نسأل أيا من أهل المكان.

فضحك وظهرت سنة ذهبية في فمه.

- أنا من أهل هذا المكان. هذه عائلتي وواحتي.

نظرت حولي علي أستكشف أي شيء. هل هذا مقلب من غزالة لأني عاكستها وضايقتها؟ في نهاية البيوت المتناثرة يوجد عدة خيام منصوبة ثم لا شيء سوى فراغ رملي لاحد له. عدة نخلات. عماتي. يأس تام وأمل مدفون هناك.

عندما رأى السائق حيرتي قادني إلى خيمة وأعد لي بساطاً وشراباً وظلاً وقال لي:

- سأسأل عنها لكني لا أظن أننا سنصل لشيء. فأنا أقود حافلتي هذه منذ أحد عشر عاما. ولم أسمع عنها بتاتا.

- أو ربما لا تصل إليها الحافلة .

- ولا حتى هذا. لكن لنسأل أحد الشيوخ قد يدلنا على شيء. استرح الآن هنا حتى أعود.

بقيت أتأمل المكان معدوم الوقت، حتى رجع لي السائق وقال تفضل معي. قصدنا خيمة بها شيخ مئوي العمر نحيف كشجرة جافة . قوي رغم عمره الغائر في الزمن. أعمش إلى حد ما.

سلمت عليه رد علي السلام بصوت أجش جاف . جلست بجواره. أتى السائق لنا بلبن ماعز لنشربه. شكرته ولم أجدها من الكياسة أن أرفضه رغم كرهي الكبير للبن . خالطتني رائحة اللبن برائحة مريم.

أرجعني صوت حمدين سائقي وقد عرفت اسمه الآن إلى خيمتي. قال يسأل الشيخ :

- يا شيخنا. هذا الغريب يسأل عن واحة ولله عمرى ما سمعت بها.

رفع الشيخ رأسه لي وتملى في محدقا قدر استطاعته.

فأكمل السائق:

- أنا أعرف الأنحاء منذ أن كنت في السابعة حيث كنت أرعى الغنم للقبيلة .

ثم صمت تاركا لي الفرصة كي أتكلم فقلت :

- اسم الواحة زرزورة .

تمتم الشيخ بشيء لم أتبينه. ولكن وجهه أشرق بابتسامة جميلة وشبه استئناس. وتباعدت نظرته حتى ظننت أنه ينظر للماضي ويراه .

أعاد الشيخ الاسم قائلا بصوت مبحوح:

- زرزورة . لم يعد أحد يسأل عنها الآن، منذ أن صارت للطيور عيون واسعة وقلوب من حجر.

رغم طيبة الشيخ البينة كرهت طريقته في الكلام، أو فلنقل مللت الألغاز اللغوية وسخافتها ولكني تابعت الاستماع إليه محاولا أن أتغلب على الإرهاق الذي يدمر جسدي الآن والحرارة التي تجعلني ملتهباً خارجيا وداخليا. ربما لاحظ الاستياء والألم على وجهي.

قال الشيخ للسائق :

- حضر للضيف فرشا ليستريح ولنكمل حديثنا فيما بعد.

أحسست بالخجل لكن تعبي تغلب على، كما كان للهدوء المحيط بنا تأثير مخدر وموقف للزمن.

رافقت السائق حيث هيأ لي مكانا. تمددت على الفرش الجميل تحتي. ودخلت في نوم هادئ حتى تخللته الأحلام. أطياف متعددة فيها غرام ومريم وغزالة وفؤاد والشيخ بل وحتى العربيد وإبسالون.

صحوت منهكا وقمت بتثاقل وخرجت خارج الخيمة. أعتقد أن حرارتي مازالت مرتفعة. وعلى بعد وجدت دائرة نار يتحلق حولها بعض الناس. اقتربت منهم وألقيت عليهم السلام. ردوا بغمغمة. سألتهم عن الشيخ فدلوني على مكانه.

ذهبت إليه. وجلست بجواره. أعتقد أنه يرى أفضل بالليل حيث الشمس تعمي فعلا صباحا.

بدأ الشيخ الكلام :

- زرزورة التي تسأل عنها واحة متفردة. مظنة عند البعض خادعة لآخرين وحقيقية كما الموت عند آخرين. إلا أن معظم الناس قد نسوها الآن.

صمت قليلا متأملا ما لا أراه ثم أكمل:

- تتغير هذه الواحة بتغير المكان والزمان والأقوام، ويتبدل الطريق إليها دوما. لا مستقر دائم لها مما يجعل الوصول إليها كالمستحيل. رُب راغبٍ فيها لا يجدها أبد الدهر ورب ساهٍ عنها تصل له.

ثم التفت الشيخ إليّ وقال:

- أنت من مصر أليس كذلك؟ لهجتك دلت عليك.

- بلى. من الإسكندرية.

- أتعرف لقد مكثت في مصر أكثر من عشر سنين. كانت مصر بوابة الحج لكل الأفارقة مغاربهم وسودهم. عند عودتي من الحج استقر بي المقام في القاهرة تزوجت هناك وعشت تاجرا لمدة عشر سنوات. أحببت زوجتي المصرية بجنون. كنت شابا ساعتها والمشاعر جمر في البدن. أنستني كل ما عداها. ثم اختطفها الموت مني. همت مجنونا في الشوارع. أهملت أولادي وتجارتي .زهدت الدنيا ورجعت إلى المغرب ومنها إلى بلدتي هذه.

فكرت لو كنا في فيلم مصري أو هندي أو حتى أمريكاني يجب أن أكتشف أن هذا الرجل هو جدي أو أبو جدي أو حتى أبو جد جدي . وإن زوجته اسمها بهية وهي أيضا أم أم أم أمي وأرتمي في حضنه وأقول: أخيرا وجدتك يا أبي. لا أقل أن يخرجه يوسف شاهين وحسن الإمام معا. نوع الحشيش هنا ممتاز. استدرتُ إليه مبتسما متأملا.

أكمل جدي:

- سمعت عن زرزورة أول الأمر من تاجر سوداني موريتاني كان يأتي لنا كل عام إلى القاهرة مرتين لتسويق بضاعته. كان رجل طيب القلب قاسي الوجه. تخافه ثم تحبه. اختلفنا في أول لقاء ثم ما لبث أن أصبح صديقا مقربا لي حتى بات ينزل ببيتي بالقاهرة عندما يصلها. هو أيضا ابتلاه الله بحب غجرية تأتي من صحراء العباسية. نال منها من عذاب الجفاء والصلف ما لا يحتمله إنسان. انتهي به الأمر بقتلها.

تذكرت مريم . لعنت كل الدروب والعربيد وكل الخدع.

- لم أصدقه في البداية عندما قص لي أنه زار زرزورة مرة واحدة ولم يعرف لها طريقا مرة أخرى. ثم صدقته فالرجل لم يكذب أبدا. ومما أكد لي كلامه أني حاولت أن أتأكد فاشتريت عدة كتب ومخطوطات من الوراقين في الموسكي والسيدة زينب عن الصحراء الكبرى ووجدت كثيراً منها تتكلم عنها. ولقد كتب عنها رحالة كثيرون منهم الأجانب الذين يدققون في كل قول، أتذكر منها كتاب (ملاحظات على الواحات المفقودة في الصحراء

الليبية) لرجل اسمه جون بول كان أحد مديري المساحة الجيولوجية المصرية في بداية القرن العشرين. وصفها إنها واحة نخيل البلح بها عيون ماء كثيرة، وبها بعض أطلال وخرائب مجهولة التاريخ وهيكل حجري عجيب الشكل. وأن عيونها تنبع من بحر بلا ماء كما يقول البدو.

تعجبت من مقدرة هذا الرجل على تذكر أشياء غائرة في الزمن هكذا.

فأكمل وكأنه يرد على سؤالي:

- لعلك تتعجب من احتفاظي بكل تلك التفاصيل في ذاكرتي التي من المؤكد أنك تعتقد أنها قد مسحت منذ زمن. قال لي صديقي السوداني إنه مر بها دون أن يعرفها وقبل أن يدرك ماهيتها، عرف اسمها . واغتسل في نبعها وهناك رأى معكوسا على صفحة المياه وجهاً لامرأة لا يعرفها. لكنه كان مألوفا بالنسبة إليه. ظل هذا الوجه يراوده في أحلامه لمدة ثلاثة أعوام حتى رآها بالصدفة في سوق الجمال حيث يتاجر ومشى وراءها وعرف أنها غجرية وتسكن في صحراء العباسية. جن وهام بها عشقا وظنته في أول الأمر مجرد زبون عادي، وأعطته نفسها عدة مرات ولكنه تعلق بها حد الموت وأرادها لنفسه فقط وتعجب كيف وهو المصلي الحاج لبيت الله يقع في هواها . وحاول عدة مرات أن ينزع قلبه منها فما استطاع وأصبح لها كالعبد فتملكته. صار عشقه لها يحكى ويتردد في أغاني الغجر. وعندما ثقل عليه الحب وما استطاع أن يتخلص منه أقسم أن يرجع للواحة عله يتخلص من هواه فلما لم يهتدِ لواحته، عاد وقتل صاحبته.

صمت وهو يحرك فكيه كجمل يلوك طعامه. ظل صامتا لفترة وكأنه يراجع حكايته، ويتأملها من جديد. ثم نظر إليّ بعينيه العمشاوين ثم تابع:

- تغير زرزورة من طرقها لأنك تظن أنك ستتعرف عليها. فإن وصلتها ورأيتها وظننت نفسك قد عاينتها وخبرتها ستكتشف أن كل ما تعرفه عنها ما هو إلا سراب . وكل ما تتذكره هو ما تخيلته أنت. وعندما تقابل آخرَ زارها من قبل وعرفها ويحاول أن يصفها لك ستكتشف أنها بلا شك واحة أخرى، واحة لا تعرفها أنت .

قلت :

- لكن ألا تصفها أنت لي الآن؟

أكمل :

- عندما مسحت الطائرات الاستكشافية الصحراء بحثا عنها قالوا إنها وهم في عقول أهل الصحراء مثل السراب الساخر. وقال آخرون إنها مجرد عدة أشجار ونبع قد تكون أية واحة صغيرة في قلب ا لصحراء في منخفضات بين التلال. وقال آخرون أن كل واحة مفقودة هي زرزورة.

ثم خرجت حشرجة خشنة من صدره المنطبق وأضاف:

- الزمن قاتل والإنسان قتيله.

تجرأت وسألته :

- لكن هل زرتها يا سيدي؟

- كان صديقي مصمما على الرجوع إليها، حيث كان قد عرف أن فيها نبع الحياة. نبع ترى فيه ما تريد أومن تحب. تملكتني رغبة طاغية لزيارتها بعد أن سمعت من صديقي عنها. وقد حاولنا معا أنا وهو أن نصل إليها مرة أخرى. كان صديقي صادقا فيما يقول ولكني كما قال سيدنا إبراهيم (حتى يطمئن قلبي) مضيت معه وأنا نصف مصدق ونصف مكذب. كان هاربا من الحكومة بعد قتله لحبيبته الغجرية كان يريد أن يرى. وعلى مقدار حبى لزوجتي تفهمت معنى أن يقتل الإنسان الشخص الذي يحب.

خرجنا من القاهرة على عجلة من أمرنا ودعت زوجتي الحبيبة واتجهنا نحو القوافل التي ستعبر الصحراء للواحات. التحقنا بالقافلة ثم افترقنا عنها في السكة التي ظن صديقي السوداني أنها ستؤدي إلى زرزورة. وطبعا كما تتوقع لم نجدها في المكان الذي حدده. وصمم أن يتوغل في الصحراء وقد كان يعرف مداركها جيدا حيث كان يسافر مرتين كما قلت لك في العام. قطعنا سعيرا نهارا وزمهريرا ليلا. ضللنا ودورنا في منعرجات متداخلة لا تؤدي إلا لنفسها.

صمت الشيخ قليلا يلتقط أنفاسه وقد حركته الذكريات. هز رأسه ببطء عدة مرات ثم قال لي :

- لماذا تسأل عن هذه الواحة التي ما عاد يعرفها أحد. هذه الواحة المراوغة التي تختفي عمرا ثم تنبع مثل حب تجدد. إنها تتفتح كزهرة برية تتبع قانونا غامضا.

تساءلت هل أحدثه عن عربيدي ومأساته ومأساتي؟

- كان صديقي قد عرف بعض الأشياء عن الواحة وعينها المسحورة من مخطوطات أتى بها منها كنوع من المقايضة. وعندما قرأ بعضاً من هذه المخطوطات أصابته لوثة. حتى أنه بعد قتله لامرأته صمم على استعادتها بالعين.

خيل لي أنه يقص علي قصة تتبدل كل مرة يصمت فيها ويبدأ في الحكي مرة أخرى.

- هذا ما فهمته منه. ولكن قل لي لماذا تريد أنت الذهاب إلى زرزورة.

- لأني أعتقد أنه يوجد مخطوط مهم بها ، ويبدو من كلام صديقك أنها كانت تحوي على مخطوطات عدة .

- نعم أنا أعلم ذلك.

- نعم أبحث عن مخطوط اسمه مآل العربيد.

- لقد أتى صديقي بعدة مخطوطات منها وتركها ببيتي في القاهرة.

- وماذا حدث لكما في بحثكما؟

- لم نجدها كما قلت لك. وكان صديقي يفقد حياته جزءاً فجزء. رأيته يذوي ويموت أمامي ببطء. بقينا فترة بجوار بئر صغيرة محاطة بعدة شجيرات شحيحة الظل. مات صاحبي ودفنته هناك وأنا ألوم نفسي على إقدامي على هذه المغامرة غير المحسوبة. وبقيت أعافر وأقاوم الموت حتى

أتت قافلة وأدركتني. وعدت إلى القاهرة ووجدت الكارثة قد حلت بي أنا أيضا حيث توفيت حبيبتي في غيابي بمرض حار فيه الحكماء. وشعرت أنه عقاب مبهم على ذنب لست أعلم هل اقترفته أم لا.

كنت أتلهف على سؤاله عن هذه المخطوطات التي حدثني عنها، بغض النظر عن أسطورية قصته التي من المؤكد أن مخه المخرف قد أخترع أجزاء كثيرة منها تتبدل وتتراوغ حسب حالته وذاكرته. ثم خطر لي هاجس أفزعني أن هذا العجوز المئوي يتلاعب بي فنظرت إليه مستريبا. أدقق النظر فيه عليّ أصل لبعد زمانه المخفي وأقتنص أنا تاريخه الحقيقي الضائع.

كان جزء من تلهفي نتيجة لعملي الذي يحكمني وعشقي الآسر للمخطوطات والألغاز التي تطرحها والأسرار التي تهمس بها ، والجزء الآخر لأنه كتفسير إعجازي لطلسم يفتك بي خلسة وببطء.

أي طلسم يقود رحلتي ويؤذن بالارتياح التام!!

أشعر أني عجوز كهذا الرجل المواجه لي شبيه سيبيل الأساطير اليونانية.

ماذا تروم؟ لا أعرف حقيقة ما أطمح أن أجده في هذا المخطوط. المآل. لماذا نقع في حب قطط شيرازي جميلة ومتعالية؟ قطتي الصغيرة اسمها..... اسمها .....

غمغم بصوت لم أتبينه، أسرعتُ :

- وأين هذه المخطوطات ؟

ابتسم وقال ببساطة :

- معي. أحضرتها معي كحرز قاتل وعلامة على ذنب لا أعرف إن كنت قد اقترفته أم لا.

- هل تعني أن عندك مجموعة من تلك المخطوطات.

أومأ بنعم . كدت أجن:

- هل لي أن أرى مآل العربيد؟

- أن تقرأه؟

تفكر قليلا ثم أضاف:

- هل تريده حقا؟

- نعم. أريده حقا.

حقا ؟ احترس مما تريد ،رأيت إيبسالون وهي تموت متلظية تفقد أوشامها وحياتها نقطة نقطة.

- نعم أريده.

- إذن سآتيك به غدا.

- هل لي أن أرى باقي المخطوطات ؟

- لقد طلبك وناداك هذا. فهو لك إذن. فلا تدعه من يدك. ودع باقية المخطوطات لمن يطلبها.

بعمره هذا المخطوطات كلها ضائعة لا محالة.

بت ليلتي على نار حقيقية. انخفضت درجة الحرارة تحت الصفر بالليل فأوقدوا لي نارا أرقد جوارها. وظننت أني لن أقرب النوم لحين حصولي على المخطوط، إلا أنني رقدت وشعرت بالدفء. أتاني العربيد يردد حلمي كذكرى من عصر ماض. عشق آباد ، وما أدراك ما عشق آباد. ويقول لي مرددا: إنه أنا. إنه أنا. ثم تعالى صوت الجميلة ذات الأوشام السبعة ترتل بصوت عذب: يا من الكل به واحد، وهو في الكل موجود. ثم تتبدل بغرام تدب بقدميها كراقصة فلامنكو محترفة، ثم تشع مريم بنور سماوي كما العذراء لكنها تمسك عصا وكأنها تدرب تلميذا على النطق بالحروف فتقول وشخص ما يردد: ألف باء تاء ثاء.....

مآل العربيد

مآلي أنا الهائم المحزون، المعروف للغافلين بعربيد عشق آباد، الذي شاكله الدهر وأخنى عليه. بادرني بنجم ثاقب وطالع زاخر ثم بلاني بما لا يحتمله بدن ولا تطيقه روح. تاقت نفسي لحبيبي الغالي وعز على الدهر أن ينصفني بقربه أو يرحمني بنأيه ، فابتلاني بما لا تستطيعه النفس. أدناه حتى احترق الحشا ثم غيبه تاركا جمرا وسقر ببدن كليل ثقيل, فيه روح عليل. قالوا لي نسيانه محال واسترجاعه محال فتشتتُ من حال إلى حال فما أبرئت من السقام. يا سيدي وخليلي على الدرب لعين الحياة أدام لك عزك يا سيدي الخضر. أنت رفيقي يا خضري المعجز تقول لي: لا ألم، لا حياة. تقول لي أنك تعرف حال المحبين فارحم محب سُوِّحَ فاشتاق. ترشدني إلى عين في مغرب الأرض وسبحان من له المشارق والمغارب. تسيرني يا سيدي يا خضري في أراض وجبال وصحارٍ وفلوات. تركنا المكنونة مصر وضربنا في الأرض وها نحن نجوب منذ أزل موماة العزلة والرجاء. نعبر ونعبر ولا نصل وتقول لي: صبرا جميلا. فيا سيدي إن لم يستطع الجسد المطاوعة فاقتله أو اصلبه أو احرقه وخلصني. تعتب على ثم تبتسم وتقول ما كان موسى أكثر صبرا عنك ولا كان إسكندر ذو القرنين بأكثر حكمة منك. فاتبعك راجيا حتى تغمرنا الظلمات التي أظلمت عليك أنت وإسكندر ودخلتماها فتاه ذو القرنين عن نبع الحياة وفزت أنت بنعمة ربك فاغتسلت في ماء الخلود وصرت حيا لا تموت. وأنا بعد مقتل حبيبتي واحتراق مهجتي بُدِدتُ ولم ينقذني سواك يا سيدي يا خضري بمد يدك لي. تبشرني وتقول أن النبع الذي تقودني إليه يريني وجه الحبيب. يا سيدي كلما ضقت مني أستسمحك فلا تتركني. شفني الوجد والحزن قاتلي. لِمَ تنقذني

إن لم تفِ بوعدك؟ صبرا وأستميحك عذرا. ظللنا نسير حتى وصلنا إلى حيث تغرب الشمس في العين الحمئة. رأيناها وتحملنا صهدها وسعيرها ولهيبها لكنه صار كبرد نار إبراهيم عليه السلام ، كنور الفردوس إذ كان قبلها الظلمات التي تخبئ النبع فيها. تقول لي :ظلمت الحية وظلمت حواء. يا سيدي أما ظلم آدم؟ تصمت وتحزن. وأرجع أستميحك عذرا. وأذكرك بعهدك ما دمت حزت طريق النور وأصبحت الهادي. هذه الظلمات تطبق فلا أراك ولكني أسمعك يا سيدي. تقول لي يا سيدي: أتسمع ولا تنصت؟ اِهزأ بي ! خُسفت شمس وانكسف بدر فلم ينيرا. تركتني لمصيري فأصبحت بدونك وحيدا في هذه الظلمات ولكن هداني شوقي إلى قلبها ووجدت نورا بعيدا ما لبث أن تجلي كنور على نور يشع من مشكاة لا هي غربية ولا شرقية. ووجدت النبع وخفت أن أقترب منه ولكن خطواتي شدتني إليه وتتابعت حتى وقفت أمامه لا أستطيع أن أنظر إلى المياه هلعا من أن أرى شيئا يرعبني . وجه المحبوب. تباعدت كل النساء اللاتي عشن في حياتي من أول حتى نور القلب إبسالون ريم الحياة التي أحببتها وما عرفت أن أنقذها. يا إلاهي . سوف أنظر إلى النبع وأرى وجه من أحب . هذا الذي قد سخر منيّ عدة مرات وأرسل لي أطيافاً حتى أقع في حبها . هل أنت يا ريم الفلاة من سأراه. اقتربت أكثر وأكثر وترقرقت مياه النبع أمامي وانعكس الضوء من قبة كالسماء لا هي زرقاء ولا بيضاء. جفلت ونظرت فوجدتني عاريا كما خلقت بأوائل الدهر. واقتربت واقتربت ونظرت إلى العين. وهناك بهرني جمال الشكل والروح. وأدركتُ أن هذا هو حبيبي الذي أنشده منذ الأزل. رأيت وجهي رائقا كوجه نرجس النبع. فانبهرت وندهني إليه بلا صوت ولا حس. ونزلت النبع وانضممت إليه وخرجت من الماء أنا هو. وطغى النور على الكل وانزاحت قبة النور وانفجرت وعم الضياء كل الأكوان ورأيت من حولي حديقة غناء وسمعت أصوات مرحبة تغني وتدعوني إن أستمتع وأن أعود حيا كما كنت في وقت ما. وأرجع لهم. ها أنا قادم ها أنا قادم . يا حبيبي. توغلت في الحديقة وظللت أمشي حتى وصلت إلى أرض منبسطة ورأيت الطائرة قادمة وأعلنت عن الرحلة إلى مصر في موعدها وأن البوابة هي رقم سبعة. وعلى المسافرين سرعة

الوصول إليها. اتخذت مقعدي وأحكمتُ الحزام حول وسطي وبدأتُ الطائرة في التحليق. وفي صمتي أتواجد.

تمت الحكاية

2004- مايو 2008

amruafia@gmail.com

مراجع المخطوطات:

الف ليلة وليلة

الأغاني للأصفهاني
مصارع العشاق: للسراج القاري
أخبار الحلاج
ديوان الحلاج
عجائب المخلوقات للقزويني
أبو العتاهية حياته وشعره.
ديوان أبو نواس
الموسوعة الشعرية: المجمع الثقافي، أبو ظبي
اللزوميات: أبو العلاء المعري
الكلام الذي يسعد القلب: أشعار الحب في مصر القديمة. ترجمة وتقديم حسن صابر
الأدب المصري القديم: حسن سليم